الرسول القائد

د.طارق السويدان

تأليـــف
د.طارق السويدان

تصميم وإخراج
إسلام عصمت العتريس
eslamesmat@gmail.com

الناشر

شركة الإبداع الفكري
للنشر والتوزيع - الكويت

جميع الحقوق محفوظة للناشر(شركة الإبداع الفكري) (يـمـنـع الـنسـخ أو التصـويـر أو الـنـقـل أو النشر في موقع الشبكة الالكترونية أو الاقتباس من هـذا الكتاب أو أي استـخـدام آخر لـمـادتـه إلا بـإذن خـطـي مـن الـنـاشـر لعدم التعرض للملاحقة القانونية)

الرقم المعياري الدولي « ردمك »
ISBN 978-9921-714-60-9

رقم الإيداع : 0435-2022

e-mail: info@ebdaafekry.com

للشراء عبر الانترنت www.ebdaafekry.com

هاتف: 22404854 - 22404883 965+

فاكس: 22404852 965+

العنوان: ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

ebdaafekry.com
info@ebdaafekry.com
Ebdaafekry

@ebdaafekry
ebdaafekry
الابداع الفكري

بسم الله الرحمن الرحيم

أ ـ مفهوم القيادة وأهميتها عند النبي القائد الأمي

صلى الله تعالى عليه وسلم

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، الذي بعث في الأميين قائداً جامعاً لصفات المرسلين، رسولاً منهم ينهض بهممهم وفضائلهم لخيري الدنيا والدين، صلوات ربي وسلامه عليك أيها النبيُّ الهادي الأمين، الصادق الوفيُّ الرحمة للعالمين، وعلى آلك وأصحابك وأزواجك وذريتك والتابعين لسبيلك ونهجك إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد قال الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ النساء: ٥٩. **وجاء في القرآن عن يوسف عليه السلام:** ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ يوسف: ٥٤ **حيث وجد من نفسه المؤهلات لذلك.**

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ البقرة: ٢٤٧ .

فإن الله اختار لهم ملكاً يقاتلون معه، وكان السبب في اصطفائه أن الله زاده بسطة في العلم والجسم، ففضل الحكام في كمال الجسم وتمام العقل، وهذا ممّا يكمل به الملك ويجمل به الملوك:

جمال وروعة في المظهر، وبراعة وقوّة في المخبر.

وقال الله عزَّ شأنه: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ النساء: ١١٣، وأمر سبحانه أتباعه ﷺ من المؤمنين ليقتفُوا أثره ويتابعوا منهجه، فقال جل وعلا: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾ الأحزاب: ٢١ .

هذا المؤلَّف الصغير الحجم ضمَّ بين دفتيه قواعد ومعلومات فائقة، فيها خلاصة وحصيلة ما يجمع مقوِّمات الإدارة والقيادة في تراثنا العظيم وبخاصة نماذج من وقائع السيرة المطهرة، وكذا ما توصَّل إليه الغربيون في فني الإدارة والقيادة، وقد بيَّن رسول الله ﷺ مكانة القائد والأمير وما يجب له من الحقوق، وما يجب عليه في أحاديثه الشريفة فمن ذلك:

قوله ﷺ: ﴿كلُّكم راع، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته﴾[1].

وقوله ﷺ: ﴿من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني، ومن يعصِ الأمير فقد عصاني﴾[2] وله ألفاظ أخر.

وقال ﷺ: ﴿عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك﴾[3].

١ - أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩)، وأحمد (٢/٥٤ . ٥٥)، وأبو داود (٢٩٢٨)، والترمذي (١٧٠٥) وغيرهم.

٢ - رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥) (٣٢) و(٣٣)، والنسائي ٠(٧/١٥٤)، وابن ماجه (٣).

٣ - رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه أحمد (٢/٣٨١)، ومسلم (١٨٣٦).

وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: ﴿إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع؛ وإن كان عبداً حبشياً مجدَّع الأطراف﴾[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة﴾[2].

ترى في هذا الكتاب عناصر بنية القائد الفعَّال، إن كانت علوماً وخبرات مكتسبة، أم أموراً فطرية جبلِّية، وكيف يتكامل كل منها بأمثلة واقعية ثابتة، وأحداث جياشة محركة نحو الهدف، مع فوائد وتعريفات وتقريرات هامة تدعو المسلم إلى التطلع على هذا المنهج القيم الذي يفتقر إليه أكثر مسلمي اليوم؛ ليتمرس على هذا المجال وليحاول تطبيقه كلّ في مجتمعه الصغير أم غيره الذي يتطوَّر يوماً فيوم حتى يغدو المسلمون سادة وقادة للعالم من جديد بإذن البارئ القدير.

١ - رواه مسلم (١٨٣٧)، وأبو داود (٤٣١)، والترمذي (١٣٦)، والنسائي (٢/٧٥).
٢ - رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

وفي الختام:

أسأل الله العظيم ذا الجلال والإكرام أن يمنَّ على المسلمين بقادة أمناء مقتفين منهج الأسوة الحسنة الذي جعله تبارك وتعالى هادياً ومُحبّاً بشيراً ونذيراً يتمتعون بالعدل والكرم، والحفظ والعلم والحلم، والحكمة والشجاعة والمرونة، والشورى والصبر والثبات، والاستقامة والعاطفة والثقة، وتوجيه الناس، وحسن التصرفات وإدراك الأمور ومعرفة السياسة، وضبط النفس، والسماع، والتطلع على المستقبل، والتوازن، والتصميم على دحر العدوِّ، مع قوة الإرادة والإدارة والاستقامة ومعالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية بخبرة وتمام انتباه وغير ذلك.

مدخل لفن القيادة:

القيادة فنٌّ أكثر من أن يَكون علماً يدّرس فيترقى فيه فيصبح قائداً ـ فمثلاً من يدرس علم التجارة ليس من الضروري أن يكون ممارساً للتجارة ـ فلذا يُتعلم أوّلاً الأمور النظرية، ومن ثَم لا يكفي التعلم فحسب، بل لا بد أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات ليكون قائداً على رأي أكثر العلماء.

والحديث عن موضوع القيادة في هذه الحقبة من المهمات التي تفقدها أمتنا الإسلامية اليوم، وهي أمرٌ ـ كما يقال ـ: حسَّاس؛ لأنها تدخل في كل جانب من جوانب حياتنا، وقد لخصها النبيُّ ﷺ في الحديث المتقدم «كلكم راع...» خير تلخيص، فقد تكلم عن القيادة، فجعل كلَّ إنْسان راع، أي: قائد، ومسؤول عن رعيته؛ يعني عمَّا هو مرؤوس عليه؛ ليتابع شؤونه وليتقدم به نحو هدف سام؛ فيه مصلحته وسعادته.

عِظَمُ الهدف غاية جليلة لها مركز وأساس في نظرية القيادة ومفهومها، فعلى المسلم إن كان أخوهُ تحت يدهِ أن يرعاه ويحفظه، صَغُر في نفسه أم كبُر؛ لأنه راعٍ، لما في خبر أنس رضي الله عنه: «إن الله سائل كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه: أحفظ أم ضيّع»[1]، وفي خبر أبي هريرة رضي الله عنه: «... فإن الله سائلهم عمَّا استرعاهم»[2].

---

١ رواه عن أنس رضي الله عنه ابن حبان كما في «الإحسان» (٤٤٩٢) بإسناد صحيح.

٢ أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

كان فريق من أهل العلم والفضل قد سطَّروا في هذا المضمار كلاماً جميلاً، فعلينا أن نطلع على جهودهم المدوَّنة لتلك المعلومات والقواعد لهذا الفن - الذي غفل كثير من أبناء عصرنا عنه - فأحببت أن أجمع فيه جملاً وشذرات أضيف بهما جهداً إلى جهد من أصول شرعنا الحنيف، الحاوي على كنوز الهدي النبوي وتراث أئمتنا الثَّرِّ؛ لنُروي أوارَ مجتمعاتنا الحاضرة بما يسعف حالها ويشدُّ من أزرها، وبخاصَّةٍ إذا أضفنا إلى ذلك ما حصَّله علماء الدنيا من الغرب وغيرهم لمفاهيم جديدة مبتكرة، لأنهم غاصوا في غوامض هذا الفنِّ وسبروا أغواره أكثر من غيرهم، فنالوا منه حظّاً وافراً غير قليل، فوضحوا سبيله بكثرة المعالم، ونظروا في صفاته وأساليبه.

مصادر أصول هذا الفن:

إن في القرآن العظيم مورداً فياضاً، ولكلِّ شيء فيه تبيان، إنْ كان في صريح نصوصه أو في إشاراته، كما أنَّ النبي ﷺ الذي كان خلُقه القرآن تتجلّى بشخصيته السِّمات الرفيعة والعلوم الغزيرة، ويتضح ذلك في استعراض حديثه الشريف وسيرته العطرة؛ لأنها أساس في انطلاق المفاهيم المثالية الرائعة، وَفيها توضيحات مشرقة في علمي الإدارة والقيادة، اللَّذين داخلهما خلل لضعف الأمة من هجمات وصراعات عبر قرون، فتخلَّفت أمتنا عن انطلاقة الأمم المترقية، ومسارعتها للتقدم.

فبعد أن كنا سادة العالم تخلفنا وتراجعنا وانحرفنا وذاك لأمرين:

أحدهما: التفريط ببعض المناهج الدينية،

والآخر: يتعلق بعدم النظر في الشؤون الدنيوية كما ينبغي بعينٍ يقظة.

أحداث فعَّالة:

معلوم أن الدنيا لا تدومُ على حالٍ، فبعد التخلف والفساد والضياع والبغي يأتي التقدم والصلاح والجمع والعدل فتكون صحوة، ويليها نهضة..

هذا من سنن الكون؛ لأن الشيء إذا وصل إلى حدِّه انقلب إلى ضدِّه، كشأن الربيع، تكون الأرض جدباء مقفرة فينْزل عليها الغيث فتأتي بكل نبت بهيج يسرُّ الناظرين.

وإذا أمعن أحدنا النظر في شدّة الغلس فإنه يرى كيف ينقشع الظلام ويأتي الضياء، ونرى في نواميس الخلق دوماً أن بعد العسر يأتي اليسر، قال تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ الشرح: ٥ ـ ٦ فالانحراف الذي كان أضاع الأمة، ولن يستمرَّ ففي الخبر ما يدل على وجود قائدٍ أو عالم أو مصلح في مَطْلِع كلِّ قرْنٍ؛ لما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أبو داود (4291): «إنَّ اللّه يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مئة سنة من يجدِّدُ لها دينها».

فالرجعة صحوة، فيها عودة لكتاب اللّه وسنة رسوله، فيها عودة لتنقية العقيدة من الشوائب والدخائل وكذا إصلاح لشؤون المسلمين على وفق الهدي الرباني، ثم يليها عزّة وقوّة وكرامة...

المسلم لا يريد التخلف ولا التبعية لأحد، المسلم هو خليفة اللّه يثبت أحكامه ويقيم حدوده، المسلم سيد المواقف لا يلين ولا ينحني لطاغية ولا باغٍ.

أ ـ من صفات القائد إقامته ميزان العدل:

القائد والتبع كلاهما في صفٍّ واحد؛ فلكل ما كسب وعليه ما اكتسب، وكل يحترم الآخر لذا سادوا الأرض وفتحوها، ونرى ذلك واضحاً ـ

كما يذكر التاريخ ـ في قصة الفاروق وفتحه مدينة القدس الشريف يوم كان يصحبه مملوكه، والحال: أنه كان يتناوب معه على ركوب الراحلة، فلما وصل باب المدينة كانت نوبة ابن الخطاب رضي الله عنه في سحب البعير، ومملوكه راكب على متنه.

فإن كنا نريد أن نقود أمم الأرض من جديد، لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ الأرباب، وننقذهم من جور الأديان إلى رحاب عدل الإسلام، وننطلق بالناس من ظلم الدنيا وضيقها إلى سعة الدنيا والآخرة فبهذا القسطاس المستقيم.

ويظهر ذلك في وقوفهم في صف واحد بين يدي ربِّ العالمين في الصلاة، الغني بحانب الفقير، والرفيع بجانب الوضيع قال رسول الله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط...»[1]. مع قول العزيز الحكيم: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الحجرات: ١٣ .

١ - أورده التقي الهندي في (كنْز العمال) (٢٤٨٢٢) و (٢٤٨٢٣).

فالقيادة الإسلامية تجعل دعاة الخير في كلِّ مكان كالقلب في الجسد، إذا صلح صلح الجسد كلُّه، فالوصول إلى هذه المرتبة ليس باليسير فدونه خرطُ القتادِ ـ وهو كطريق الجنة حَزْنٌ بربوة ـ فالعودة العودة إلى المنهج الصحيح الأصيل، ومع ذلك لا يكفي وحده للقيادة، بل لا بدَّ من خبرة ومعرفة وقوّة لتنفيذ وإدارة مبادئنا وقيمنا.

حكّام الأرض وانتصار بعضهم:

كثير من المتسلطين على الأمم اليوم عقائدهم منحرفة وزائغة، ابتعدوا عن منهج ربِّ العالمين وعن رسالاته لجميع المرسلين، ومع ذلك استطاع بعضهم أن يرتقي بأمته رغم انحرافها، فكيف كان ذلك؟

هذا أمر سنَّهُ الله تعالى وجعله قانوناً في الكون قال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ الأحزاب: ٦٢ وقال: ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ فاطر: ٤٣ فقواعد الكون الربانية لا تتخلف: فمثلاً قانون الجاذبية يحكم الحياة المادية وهكذا....

أما ما نحن بصدده الآن فإن العلامة المودودي رحمه الله تعالى يلخصه لنا بكلمات هي: إنما تنتصر الأمم بالإيمان. فإذا تبنت أمة الإيمان وأخرى انحرفت عنه فمن كان منهم على منهج صحيح ولو

كانوا قلَّة فإنهم ينتصرون، مصداق ذلك قوله عز ذِكره: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ البقرة: ٢٤٩ ، وقال تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ محمد: ٧.

في هاتين الآيتين سنن وقواعد ومناهج ومبادئ لحياتنا ولنهضتنا، فالنصر دوماً حليف الإيمان، والهزيمة حليفة العصيان.

وقال المودودي أيضاً: إذا تخلت الأمم عن الإيمان فإنها تنتصر بقوتها. أي: أنهم إذا كانت لهم قوّة ذاتية في عددهم وتخطيطهم وإدارتهم والتكنولوجيا المتوفرة لديهم... انتصروا.

خلاصة القول:

إنَّ مَن تخلى من المسلمين عن منهج اللّه تعالى وحكم بدساتير غير شرعية، وتمسك بمظاهر دينية ليست أصيلة التعلق بدين اللّه تعالى، تركه اللّه وشأنه؛ لأن اللّه تعالى هو الغنيُّ الحميد، ولأنه تعالى كما قال: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ البقرة: ١٥٢ فمن ذكر اللّه وراقبه في فعله ونصح لأمته وعمل على إصلاح رعيته.. كان اللّه في عونه كما يقرر هذا المعنى رسول اللّه ﷺ بقوله: «واللّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1]، وكن مع اللّه.. ترَ اللّه معك.

١ - أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٦٩٩).

من مظاهر التخلف:

لما تنكبنا هدي الله ورسوله وصار مرجعنا - إلى فترة طويلة - إلى الغرب على مختلف المستويات.. رأينا التقهقر والانحدار في كلِّ شيء على جميع الأصعدة، فما من ملاذٍ لنا إلا بالرجوع إلى الفطرة وسبيل ربِّ العالمين: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾ يوسف: ١٠٨ فالنجاء النجاء، والفوز الفوز، والسعادة السعادة في اتِّباع هذا الدين.

العودة إلى الالتزام:

تحرَّكت هواجس العودة واليقظة لكنها لم تجد أنصاراً، بل وجدت من يقاومها ويقف عقبة في طريقها ويحول بينها وبين تنفيذ رغباتها، لكن سنن الكون الإلهية التي هي ثوابت لا تتخلف.. تظهر وتبرز معلنة وجودها، قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ الأنبياء: ١٨ .

بدأنا من جديد بالركون إلى الإيمان مع اتخاذ الأسباب، والأمر - في هذه الفترة - يتطلّب المزيد لينضما في سلك واحد، حتى نكون أقوياء أشداء، إخوة متآزرين، ننهض من جديد بأمور ديننا ودنيانا، فمناهج السيادة والقيادة بين أيدينا، وعندنا ملكات وقدرات لا يستهان بها تستطيع أن تفتح آفاق العالم بخيريتها وعلوِّ قدرتها، لكنها بحاجة للجهد البشري الذي قام به أصفياء الله وأنبياؤه، قال الله تعالى:

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم...﴾ التوبة: ١٠٥ .

وهناك أمر آخر يسبق العمل لابد من وجوده نوَّه عنه الله تعالى بقوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..﴾ الأنفال: ٨ فالإعداد والتخطيط بقدر الوسع والطاقة هي من مقدمات القوَّة.

نماذج توضح الفكرة:

إيماننا يدلنا على يقينيّات لا يعتريها انصرام، ولا تتخلف في حق الخالق جل جلاله لأنه: ﴿فعَّال لما يريد﴾ البروج: ١٦ ، و: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ مريم: ٣٥ ومع ذلك شاء سبحانه - وهو الذي لا يعجزه شيء - أن لا يكون نصرٌ إلا بجهد البشر حتى ولو كانوا أنبياء.

فمحمَّد صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع أنبياء الله أجمعين قد أُوذي في الله وشجَّ وجرح وأخرج من وطنه حتى نشر دعوته وبلغ رسالة ربه، والله قادر عن نصرته ونشر دعوته بغير هذه الجهود، فإذن هذا منهج أصيل، درَّبنا عليه القرآن وكذا السنة المطهرة، فلذلك فلبذل طاقتنا وغاية جهدنا في تحقيق غايتنا المنشودة، وكلٌّ من سار على الدَّرب وصلَ.

1 ـ مثال على ذلك: سيدتنا مريم ابنة عمران عليها السلام لما أتاها المخاض أوت إلى جذع النخلة وكانت جائعة عطشى متألمة ـ ومعلوم أن أشدَّ حالات الألم هي حالة الولادة ـ فجاءها النداء من الوحي:

﴿وهزي إليك بجذع النخلة....﴾ مريم: ٢٥

ـ ومن المسلَّمات أنّ هزَّ النخلة يعجز عنه الرجل القوي فما تفعل مريم وحالتها هذه، إنها امتثلت الأمر وباشرته، فأسقط عليها رطباً جنياً؛ لننظر هل فعلها حرَّك النخلة أو أنزل الرُّطب؟ لا، ثم لا، ولكن أراد اللّه تعالى أن يطعمها ـ وهذا الأمر معجزة ـ فأمرها بالهزِّ ليكون فعلها هذا من مناهج الفِطر الكونية، فعلى الإنسان أن يعمل شيئاً ويبذل جهده، ولو كان فعله بسيطاً، حتى ولو كان لا يعتقد أنه يوصله إلى نتيجة ؛ لأن هذا من نواميس الكون الثوابت التي أمرنا بها.

2ـ مثال آخر: سيدنا موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر ـ وهل العصا تفلق البحر، وإنما هي معجزة لربِّ العزة، أجراها على يده تأييداً له ونصرة ـ قال تعالى: ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق...﴾ الشعراء: ٦٣ فأمرُهُ تعالى منهج تربوي أصيل في دروب القيادة.

ومثله قوله سبحانه لنبيه ﷺ بعد إثبات فعله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ الأنفال: ١٧ . ثم أعلمه بأن الفعل الحقيقي لله تعالى لا لغيره.

خلاصة القول: علينا أن نفعل ما نستطيع مع الاعتقاد والتذكر دائماً أن أعمالنا ليست هي التي تؤدي إلى النتائج، فالنتائج من عند الله رب العالمين العزيز الحكيم.

فنحن مثلاً نبذل الجهود لتعلم فن الإدارة والقيادة ونحاول في المستحيل تدبير الأمور ونخطط ونحسِّن قدر استطاعتنا وجهدنا لتحصيل الغاية المنشودة فلا يقال: لمَ نفعل كل هذا؟ وكذا: لا يكفي أن نكون مؤمنين متقين ندعو الله بالنصر؛ لأن هذا ينافي منهج الإسلام وفطرة الله تعالى؛ لأن ترك اتخاذ الأسباب معصية.

فالأخذ بالأسباب ـ مادية أو معنوية، كبيرة أو صغيرة، تخطيطاً أو تنفيذاً ـ ضروري لازم مأمورون به، ثم نتوكل على الله تعالى، قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطانا»[1]. أي: تخرج ضامرة البطون، وترجع وهي ممتلئة البطون.

أمَّا التواكل: وهو ترك اتخاذ الأسباب فقد نهينا عنه.

ملحوظات هامة:

التوكل على الأسباب شرك، وهو فعل العلمانيين.

التوكل يكون بعد اتخاذ الأسباب على مسببها وهو الله تعالى الحي القيوم، قال سبحانه: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ المائدة: ٢٣

و: ﴿فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ يونس: ٨٤ .

عودة إلى معنيي الإدارة والقيادة التي هي تحريك نحو الهدف:

علومنا ومعارفنا والأسباب كلُّها لا تنفك عن إيماننا، فمن هذا المنطلق نبدأ بأخذ العلوم والمعارف ثم نطبعها بطابع الإسلام؛ فنحن نوقن ونؤمن بأننا مهما طلبنا العزَّ بغيرما أعزنا الله أذلنا الله فلذلك:

١ - أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما الترمذي (٢٣٤٥) بإسناد حسن.

مكانة الإدارة والقيادة: تدرَّسُ في الغرب لأجل تحسين الدخل المادي ووفرة الأرباح فقط، وهي تعدُّ عندنا: لربط هذا العلم بالأسباب مع مسببها جلَّ وعزَّ، وهي وفق شرعنا؛ لأن من وراء ذلك قصداً هو هدفنا، ألا إنه رضاء اللّه، ليس غرضنا مادياً ولا دنيوياً، فنحن نريد جزاء الخالق تعالى بالجنة دار النعيم الأبدي، فتحسين العمل وإتقانه وتركيزه من جذور ديننا قال ﷺ: «إن اللّه يحبُّ من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»[1]. فنحن نتعلم ونعمل بجدٍّ وخبرة وعدم توان مع بذل الجهد لنؤدي واجباتنا على أتمِّ وجه.

يتعلم الإدارة والقيادة كلٌّ على حسبه فما يجب تحصيله على الجندي ليس بقدر ما يترتب معرفته على قائده أو رئيسه، وكذلك ليس هو كقائد الوحدة أو الفِرقة، وكذا يجب أن تتصاعد المعرفة على قدر الرتبة والمنْزلة كما يقال: المسؤولية على قدر العطية، وبالعكس.

فالنصر له دواعيه وأسبابه، لكننا نجزم ـ لاعتقادنا الذي لا مرية فيه ـ أنه بيد اللّه يهبه لمن يشاء، قال سبحانه: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ آل عمران: ١٢٦ ذلك بعد اتخاذ الاستعدادات مع كامل الأهبة وتجهيز العدد وبذل الجهد وإعداد الخطط والتراتيب الإدارية والمشورة وتصحيح النية والالتجاء لمن يهب النصر، فجميع ما مرَّ من تحسين أمور القيادة ومن جواذب النصر في الحرب.

١ - أورده في «كشف الخفاء» (٧٤٧) بألفاظ متعددة.

فالقيادة اليوم هي سبب الانتصار بنسبة تعادل: 80 - 90 %
فالمعلومات والخطة والإدارة من الناحية المادية، ثم تأتي قوة السلاح وفعاليته. قال الشاعر المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أوَّلٌ وهي المحلُّ الثاني

فالوقائع والحروب القاسية التي خاضها رسول الله ﷺ قائداً كانت متميزة بما سلف من بُنود مع ما يلي من عناصر:

1. اختيار القادة الأكفاء وتقدمهم في الصف.
2. القدرة على تحمل المسؤولية.
3. خداع العدو.
4. الحرب النفسية.
5. اختيار أرض وزمان المعركة.
6. التدريب الضروري.
7. الاستطلاع، ورصد أحوال العدو، حتى أنه قد يخرج لذلك بنفسه.
8. التمويه خلال المسير والعمليات.
9. تحديد الهدف بإصرار وثبات.

10. تنقية الأجواء مع الخصوم.

11. الانطلاق من قاعدة متينة والإخلاص في العمل.

12. الثبات في القتال، وعدم الفرار والشجاعة.

13. الانضباط بأوامر القائد، والتركيز على طاعته.

14. تنظيم علاقات المجتمع العامة.

15. حرمان العدو من موارده الاقتصادية.

16. توجيهه للعلميات.

17. معاملته لخصومه.

18. تنويع الهجمات، فتكون أحياناً: وقائية أو دفاعية أو هجومية.

19. تمكن القائد من تنفيذ المهمة الموكولة إليه.

وجميع ما ذكر دليله في القرآن والسنة.

فاليوم صارت الحروب والمعارك تدرس في كليات الإدارة، فمثلاً ينقل جيش يعدُّ مئات الألوف مع عتاده وذخيرته وزاده لشهر مسافة بعيدة بأيام قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد من غير أن يطلع عليهم عدوهم. هذا من الأعمال الإدارية.

نحن معاشر المسلمين علينا أن نتعلم هذه الفنون وأن نتقنها لنخدم ديننا وأمتنا، لتنهض من جديد لتسود الأرض بالعدل والإسلام.

فالأسباب المباشرة من أوائل أبجديتها تحسين شأن الإدارة، ولو نظرنا بإنصاف إلى أسباب تخلفنا الذي نعيشه فإنا نرى مع انحرافنا وغفلتنا وبعدنا عن منهج رب العالمين جانباً آخر بشرياً مادياً قد أضفناه لما سبق - وهو مهلك مدمر مزهق - هو خلل يجمع بين جوانب التخلف ألا وهو:

التخلف الإداري مع التخلف المنهجي العقدي.. فكيف نحظى بأحد الحسنيين؟ وقد تخلفنا في جميع النواحي البشرية والصحية والتعليمية....إلخ.

نماذج عن تخلف الإدارة:

لو نظرنا إلى الأمور الصحية نجد المشفيات الشاهقة والأدوات الحديثة المتميزة ولا نجد من يكون كفئاً لاستعمالها، كما لو وصف الطبيب النطاسي دواءً لمريض فأعطاه الصيدلي دواء غيره!.

أو طلب الجرّاح المريض المعيَّن لعمل جراحي فقدِّم إليه غيره فقام للآخر بالعمل الجراحي!؟

أو أنّ الدكتور في مخبر التحليل أعطى نتائج رجل لامرأة! وهكذا...

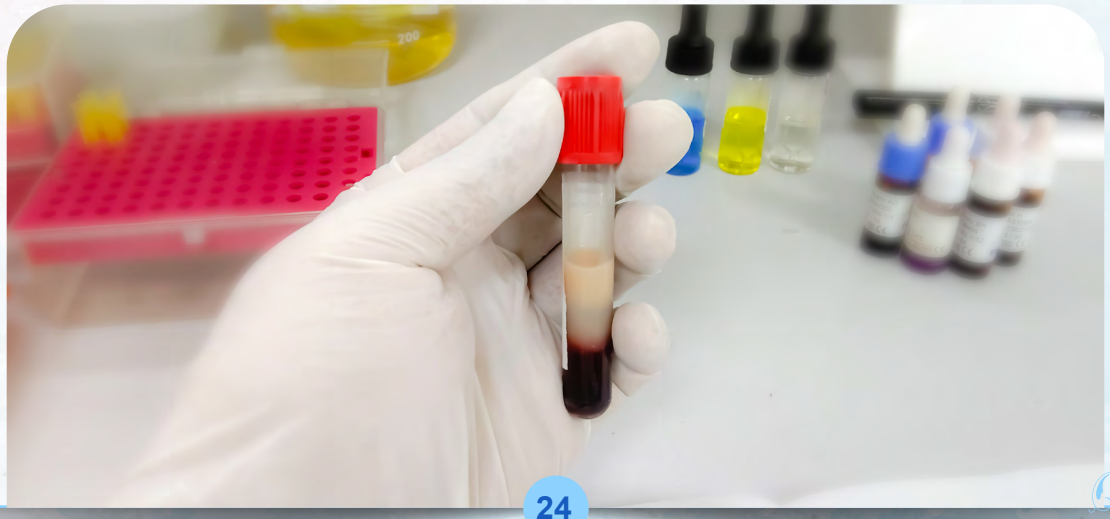

وكذا تبنى المدارس والجامعات ويعدُّ المدرسون وينفق على الطلاب الأموال الباهظة ـ ونستطيع أن ندربهم أحسن تدريب ونعلمهم أعلى وأرقى مستوى تعليمي في العالم ـ ولكن لا يعرفون كيف يديرون هذا الكمَّ من الأموال لأنهم يعملون من غير تنظيم ولا إدارة صحيحة.

ولو اطلعنا على المجالات الخيرية نجد فيها ضياعاً لكثير من الأموال مع قلة وضآلة الخبرة لجمع التبرعات ـ جمع التبرعات علم خاص يُعطى به شهادة بكالوريوس أو ماجستير من جامعات أمريكية وغربية وأكثر من يختص بمثل هذه العلوم هم اليهود ـ فهذا علم إداري له مؤلفات وقواعد ومعايير علينا أن نخبرها ونتعلمها.

وهكذا الحال في الأمور الوقفية ترى فيها هدر الأموال بما لا طائل تحته.

الوضع الحالي للمسلمين:

فالحمد لله يوجد اليوم تطور جديد في بلاد المسلمين وتقدُّم وصحوة ونهضة على كثير من جوانب الحياة ولكن سيرها بطيء والشأن خطير رغم هذه النهضة، لأنّ الغرب يتقدم بقفزات شاسعة، وسيرنا بالنسبة إليهم كالوقوف، والفجوة كبيرة، فكيف نسابقهم بالتقدُّم والرقي والبون واسع؟

إذن لا بدَّ أن نبدأ من حيث انتهوا، عندها نستطيع أن ننهض من كبوتنا هذه ونلحق بركب المتقدمين.

تعريف القيادة:

القيادة عملية تحريك الناس نحو الهدف. وهي أشياء تكرر تحتاج لكثير من الإعداد، فمن لا يستطيع تحريك الناس لهدف ما.. ليس بقائد.

قد يوجد في كثير من المنظمات والشركات إدارة بلا قيادة، يوجد فيها حركة وعمل وإنجازات ونتاج قد تدوم سنين وهي على شاكلتها الأولى، فلو سئلوا مثلاً ما هو الهدف الذي تريدون الوصول إليه؟. لم يكن منهم جواب له اعتبار منهجي.

إذاً فأكثر المنظمات عندنا اليوم تدار ولا تقاد.

فالإدارة هي: تحسين الأداء والإنجاز، مع تقليل في الجهد والوقت والتكلفة، وتعني الاهتمام بالحاضر ومحاولة تحسينه.

والقيادة هي: تركيز على الهدف والمستقبل والإنسان فبينهما فروق.

فالقيادة تنظر إلى مستقبلها عشرات بل مئات السنين على المدى البعيد، فهل نحن على اختلاف مستويات منظماتنا نستطيع أن نتطور هكذا؟

لنرى واقع رسول الله ﷺ كيف كان واضحاً في أشدِّ لحظات الضعف، وأن رؤيته لم تغب عنه، لنذكر مثلاً حاله ﷺ إبّان هجرته، ثم بعدها لما أقام الدولة في المرحلة المدنية:

1 ـ خبر سراقة:

فبالرجوع إلى قصة هجرته ﷺ نرى خبره مع سراقة بن مالك[1] الذي اندفع برغبته طمعاً في جائزة ضخمة وهي مئة بعير إن جاء بالنبي ﷺ حيّاً أو ميتاً[2]، ثم ما جرى معلوم بأنه قد ساخت وغاصت يدا فرسه في الأرض مرات حتى وقعت لمنخريها، فعلم أنه ممنوع ـ أي معصوم محفوظ ـ فطلب منه كتاباً يحميه إن ظهر أمره، فأمر النبي ﷺ عامر بن فهيرة أن يكتب له كتاب أمن وموادعة مقابل أن لا يخبر الكفار عن طريقه، وكان عرض عليهم الزاد والمتاع، فكتب في رقعه من أدمٍ أو على كتفٍ من عظم وأخذ كنانته ورجع...

ولما فتح الله على نبيه ﷺ أسلم سراقة، فجاءه بعد حُنين سراقةُ بكتابه في الجعرانةِ، فقال له ﷺ: «يوم برٍّ ووفاء، أُدْنُ»، فأعطاه ما تقرُّ به عينه.

وكان من قول النبيُّ ﷺ له ـ كما أورد القصة أصحاب السير ومنهم ابن عبد البر في «الاستيعاب» ت: (916) عن الحسن: «كيف بك ـ يا سراقة ـ إذا لبست سواري كسرى؟» ومرت السنون، وفتحت المدائن ـ قال: فلما أُتي عمر رضي الله عنه بسواري كسرى، ومنطقته، وتاجه.. دعا

١ ـ أخرج قصة سراقة بن مالك عن البراء رضي الله عنه البخاري(٣٩٠٨) في مناقب الأنصار مختصراً.
وأخرجه من طريق ابن شهاب عن عبد الرحمن بن مالك البخاري (٣٩٠٦) مطولاً.
٢ ـ جاء في «البخاري»: (لمن قتله أو أسره).

سُراقة بن مالك فألبسه إياهما ـ وكان سراقة رجلاً أزبَّ كثير شعر الساعدين ـ وقال له: ارفع يديك، فقال: اللّه أكبر، الحمد للّه الذي سلبهما كسرى بن هرمز ـ الذي كان يقول: أنا ربُّ الناس ـ وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي، رجل من مدلج، ورفع بها عمر صوته[1].

2 ـ وجاء نحوه في قصة إسلام عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لتوشكن الظعينة أن تخرج منها ـ أي من الحيرة ـ بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز أن تفتح، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز ـ وكررها ثلاث مرات ـ وليوشكن أن يبتغي من يقبل ماله منه صدقة فلا يجد».

قال عدي: فلقد رأيت ثنتين: قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل التي غارت على المدائن، وايم اللّه لتكونن الثالثة، إنه لحديث رسول اللّه ﷺ حدَّثنيه[2].

ا هـ بإسناد صحيح أو حسن.

---

١ - وجاء فيه أيضاً:

كان سراقة شاعر مجوداً، فقد قال لأبي جهل بعد عودته من ملاحقة النبي ﷺ:

لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه ... أبا حكم واللّه لو كنت شاهداً

رسولٌ ببرهانٍ فمن ذا يقاومه ... علمت ولم تشكك بأنّ محمداً

أرى أمرَهُ يوماً ستَبْدُو معالِمُه ... عليك بكفٍّ القوم عنه فإنني

بأن جميع الناس طُرًّا يسالِمُهْ ... بأمرٍ يودُّ الناس فيه بأسرهم

٢ - أخرجه أحمد (٤/٣٧٨) وغيره، وسيأتي الخبر بعد مفصلاً.

في هذين الخبرين من التفاؤل والنظر البعيد والرؤية الواضحة بِأنَّ كلا الرجلين سيعيش لزمن يعظم فيه شأن المسلمين، وأنَّ لهم من القوَّة ما يؤهِّلُهم لأنْ يغزوا ويغنموا كنوز أعظم دولتين في الأرض، لننظر إلى رؤية النبي ﷺ، كم كان نظره فيها عميقاً ثاقباً جلياً، فيه الأمل والهمَّةُ العالية، والبشارة الرفيعة، فيه الطموح واليقين، فيه التثبيت الراسخ المصمِّم على إبلاغ رسالته الخالدة الباقية ما دامت السماوات والأرض.

3 ـ مثال آخر: وفي غزوة الخندق: نرى تحالف الأحزاب ضد النبي ﷺ حتى بلغ عدد المقاتلين عشرة آلاف مقاتل، تجمَّعوا ليهبُّوا هبَّةً ويقضوا بها على هذه الدولة الفتية الحديثة، بل ليلتهموها في لحظة، وبالأحرى ليستأصلوا شأفة هذا الدين وليقتلعوه من جذوره، وهنا تتجلى صفة القائد باستجابته ـ لصفات القائد الحكيم السليمة ومنها التكيُّف مع المتغيرات ـ لآراء أصحابه ومشورتهم، ومن بينها أنه عرض عليه سلمان رضي الله عنه حفر خندق حول المدينة، فأعجبته الفكرة،

ففعل ما رآه سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حفر الخندق، وهو أمر لو اطلع أحدنا اليوم على مسافته التي شقَّ فيها بهذه السرعة ـ مع عدم وجود المعدات وشدّة الجوع حتى وضع كلُّ صحابي على بطنه حجراً وشدَّه على وسطه، فلما قيل له ﷺ: كشف عن بطنه فإذا به قد وضع حجرين ﷺ ـ لرأى أمراً عجباً مستحيلاً، بل معجزة فائقة بيِّنة. ظهر عند الحفر صخرة ضخمة لم يستطع العاملون أن يكسروها بل تحطمت الفؤوس بها ـ ولو بقيت كانت ثغرة ينفذ العدو منها ـ فجاؤوا إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: صخرة أعاقت طريقنا، فجاء ﷺ وأخذ المعول بيده الشريفة والناس ينظرون وضرب بها الصخرة فخرجت شرارة عظيمة وأحدثت شرخاً في الصخرة فتعجب الصحابة، فقالوا: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: رأيت ملك كسرى في يد المسلمين ـ أي: وأنا في هذه اللحظة أراني الله ذلك ـ ثم ضرب أخرى فتكرر الأمر، فقالوا: ماذا رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت ملك الروم في يد المسلمين، ثم ضرب ثالثة فتفتت الصخرة وخرج نور منها فقالوا: ما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت ملك الحبشة في يد المسلمين.

عمِل ﷺ الخندق وأحكمه، ووسعه وعمَّقه، وجعل الردم والحجارة من ناحية المدينة لتكون ردْءاً بينهم وبين عدوهم، وليستعينوا بها في القتال عند الحاجة، وشبّكوا المدينة بالبنيان حتى غدت المدينة حصناً حصيناً بحيث لا يستطيع أحد اقتحامه، وبعد الفراغ من أمر الخندق ظهرت طلائع الأحزاب مقبلة من ناحية أحد، ففوجئوا ودهشوا وعلموا أنها مكيدة لا تعرفها العرب، ووقفت الجيوش الزاحفة أمام هذا السدِّ المنيع.

وقفة مع أهل النفاق:

وهنا علَّق المنافقون الفاقدون للإيمان بقولهم: المسلمون سيسودون الأرض!! وأحدنا يخشى أن يخرج لقضاء حاجته؟ المنافقون هم في كل زمان ومكان يشككون بنهضة الأمم الجادة، يشككون بوعد الله تعالى، يشككون بصدق رسول الله ﷺ الذي قال الله بحقه: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ النجم: ٣ . ٤ يشككون اليوم بالسيادة للأمة وصحوتها، ويحاولون أن يقنعوا الأمة باتباع الغرب ـ كما دعى أحدهم وطلب أن تكون مصر مثلاً جزءاً من أوربا، أو كما فعل أتَتُرك لإلغاء الحروف العربية والمظاهر الدينية ـ فجاء آخراً هؤلاء المنافقون الجدد لمتابعة أولئك المنافقين.

نظرات مهمة لمفهوم القيادة:

ـ لا تكون نهضة إذا لم تكن رؤية واضحة لأي شركة أو منظمة أو مؤسسة أو دولة.

ـ الرؤية الواضحة المرشدة المحددة لأهدافها ومبادئها من القواعد الأصيلة تعدُّ من ركائز القيادة.

ـ أهم ما يملكه القائد الرؤية الواضحة، فأكثر ما نجدها عنده ﷺ، فعلينا إعادة النظر في سيرته ﷺ لنستفيد أكثر قدر ممكن من جوانب حياته وأخلاقه؛ لأنه قدوة ومثال.

وانظر إن شئت كتاب: «أفعال النبي ﷺ» ففيه ثلاثة عشر صفة للنبي ﷺ كلُّها متغايرة وأصلية في هذا المجال، ففيه ما يدلُّ على حبِّ الله تعالى لمن تابعه في أفعَاله ﷺ قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ آل عمران: ٣١ .

يعدُّ ﷺ في كل منها قائداً وفي القمة واستطاع أن يوازن بينها موازنة كاملة ولم يضيع شأناً من الشؤون ولا حقّاً من الحقوق، فهو القدوة الحسنة المطلقة الرائدة لجميع الفضائل.

ومن أجلِّ ما نعلم أولادنا سيرته للاقتداء به ﷺ فنطلعهم على جميع أحواله مع بيان لدقائق تلك المعاني والعبر العظيمة التي لم تجتمع إلا في مدرسته صلوات الله عليه وسلامه، بالإضافة إلى العقيدة الأصيلة، والأخلاق الحميدة، وفقه الأحكام لتصحيح العبادات والمعاملات، فيما بيننا وبين خالقنا عزت قدرته وتعالت حكمته.

نحتاج أن ندرس السيرة بالذات؛ لأنها منبع حكمة وعلم؛ ولنستخرج منها مفاهيم ومصطلحات حديثة إسلامية كنظريات إسلامية في الإدارة والقيادة، لأنها لم تتبلور بحقٍّ إلى الآن.

وكذلك ننظر في سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم ساروا جميعاً على هذا المنهج الأصيل، وهم قدوة وعندهم مثلٌ عليا في العطاء.

نريد أن نغيِّر قدوات الشباب والفتيات في هذا الزمن، فبدل أن تكون قدواتهم بسيطة وهزيلة كرياضي ومطربة نريد أن تكون قدواتهم عظماء الرجال ونبلاء الفضلاء، فأكبر قدوة محمَّدُ بن عبد الله ﷺ، ومن بعده الأنبياء عليهم السلام، ثم الصحابة الكرام، ثم أجلة العلماء من السلف، أو مجاهد كبير ونحو ذلك.

هذه القصص ننظر فيها لأمر هام لنأخذ منها شواهد نبني به فكر الجيل الصاعد من جديد بطريقة مبسطة سهلة مشوِّقة، حيث ينتفع العامة والشريحة الكبرى من المسلمين، وطريقة السير والحكايات هي أبسط وأيسر لإيصال المفاهيم التي تهدف- من هذا- التركيز على موضوع القيادة الهام، بل ما عندنا من مفاهيم في هذا المضمار يصلح أن يقدَّم للعالم أجمع.

نريد أن نعمل وندأب لإظهار النظرية الإسلامية للقيادة، إضافة لربطها مع العلم البشري.

خاتِمة

أكرر وأقول أخيراً: السيرة منبع هام في أساس نهضتنا بعد القرآن الكريم وكنْز لا محيد عنه في مجالات انطلاق الحياة البشرية في فهم ما تحتاج إليه من دروس وعظات وعبر، فكل قد يتنبه لشيء أو فكر لا يلتفت إليه آخر، كما في الخبر: «ربَّ حامل فقهٍ غيرفقيه»[1].

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وارنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، اللهم وفقنا لما تحب وترضى، وألف بين قلوبنا واختم لنا بالحسنى، وعلمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

---

١ - رواه عن ابن عمرو رضي الله عنهما الطبراني كما في «الجامع الصغير».

ب ـ صفات القائد الإدارية:

تختلف هذه الصفات الفَعَّالة في القائد على رأي دون آخر، فمنهم مَن يعدُّ المهم منها أربعَ صفات، ومنهم من يقول: إنها ستة، وآخر يقول: هي اثنا عشرة، وقد تصل إلى نحو ستين صفة، ثم يقولون: إنّ من تتوفر فيه هذه الصفات هو القائد الفعّال، وكلٌّ يرى أن بعض الصفات هي الأهمُّ وهذه قضية اجتهادية وكلُّها جميلة مطلوبة لكلِّ فرد، وجميعها استنتاجات واستقراءات قد يُتفق على بعضها.

ثم لو أمعنا النظر في شمائل شخصية الرسول المصطفى ﷺ وفي تلك الصفات الفائقة.. لرأينا النبي ﷺ يتربع على عرش القمة في كلِّ مزية وفضيلة من هذه الصفات العلية، فمن هذه الصفات:

أولاً ـ صفة الاستقامة:

هذه صفة المؤمن الذي لا يكذب ولا يخدع ولا يغش ولا يخون، والنبي ﷺ في الذروة بهذه الصفة وهو القدوة مع ذلك قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ هود: ١١٢، وقال تعالى عن شأن الاستقامة للمؤمنين: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة﴾ فصلت: ٣٠.

ولكن هذه الصفة وأمثالها لا تخوِّل كلَّ أحد أن يكون قائداً.

نماذج من ذلك:

فها هو أبو ذرٍّ جندب رضي الله عنه كان صادقاً زاهداً، ورعاً صالحاً تقيّاً، متقدم الإسلام من الخمسة الأوائل، مهاجراً ومبشراً بالجنة، وشبهه النبيُّ ﷺ بعيسى ابن مريم عليه السلام ومع ذلك منعه من القيادة.

قال عنه النبي ﷺ: «ما أظلَّت الخضراء، ولا أقلَّت الغبراء على ذي لهجة أصدق منك يا أبا ذرٍّ»[1]. خرج هذا الخطاب على حسب حال شيء بعينه، إذ محال عمومه؛ لأن تحت الخضراء وقتئذٍ النبي ﷺ والصديق والفاروق رضي اللّٰه عنهما ونحوهما.

وقال له ﷺ مع قوته في بدنه وشجاعته: «يا أبا ذرٍّ إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يتيم»[2].

وروى عنه رضي الله عنه مسلم قال: قلت: يا رسول اللّٰه ألا تستعملُني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذرٍّ، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقِّها وأدى الذي عليه فيها»[3].

---

١ - رواه الترمذي (٣٨٠٢)، وابن حبان (٧١٣٢)، والحاكم (٣٤٢/٣).
٢ - رواه عن أبي ذر رضي الله عنه مسلم (١٨٢٦) في الإمارة، وأبو داود (٢٨٦٨)، والنسائي (٢٥٥/٦).
٣ - أخرجه عن أبي ذر رضي الله عنه مسلم (١٨٢٥) في الإمارة.

يؤخذ مما سلف:

أنه كان رضي الله عنه ضعيفاً عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح أمور رعيته الدنيوية والدينية، ووجه ضعف أبي ذر عن ذلك: أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا وترك الاحتفال بها، ومن ذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا ولا بأموالها اللَّذين بمراعاتهما تنظم مصالح الدين ويتم أمره، كما بيَّن ﷺ وغلّظ الوعيد على الإمارة بقوله: «خزي وندامة» أي: فيها فضيحة قبيحة على من لم يؤد الأمانة ولم يقم لرعيته برعايتها، وندامة على ما قد فرط.

ولاة وقواد في عهد النبي ﷺ:

ولَّى النبي ﷺ القيادة لجماعةٍ كالخلفاء الراشدين، والعشرة المبشرين، وقد ولَّى من هو دونهم في صفات الدين والورع والعلم الشرعي، وإليك نماذج من هؤلاء القادة وميزاتهم:

١ ـ خالد بن الوليد:

الذي يعدُّ المثال الأعلى في القيادة العسكرية، والنموذج الفذِّ على مدى الزمان، هو الذي عجزت النساء أن يلدن مثله، سيف الله، ذلك العَلم الذي قلَّما يتكرر، قاتل في (99) وقعة ولم يهزم بواحدة قطُّ، حتى ولو انسحب فقد تراجع بلا انهزام، كان قائداً فعالاً، قدوة حسنة، دوماً في مقدمة الجيش، يصدَّق فعله قوله.

كان إذا أمَّ الجيش قد يخطئ في قصار السور ويقول: شغلني الجهاد عن القرآن، نعم عنده صفات الإيمان والتقوى والعدل والورع والدين إلخ.. والصحابة كلهم عدول وأقمار وشموس ونجوم يهتدى بهم ويقتدى بسيرهم، ولذا: فالمزية لا تقتضي الأفضلية، فمثلاً كان اختيارُه ﷺ للقادة يوم مؤتة فقال: إن قتل فلان ففلان وذكر الثلاثة رضي الله عنهم وهم: زيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة ولم يذكر بعد الثالث ﷺ شيئاً. فجاء أحد الأصحاب المقربين من البدريين بالراية بعد استشهاد الثلاثة ووضعها في يد خالد وذلك بعد إسلامه بأشهر، وقال: خذها يا خالد، أنت أعلم وأكفؤ بهذا الأمر مني، والله ما أخذتها إلا لك، انظروا إلى هذا الفهم العميق، وفهم النفوس والذّات، كان خالد رضي الله عنه متمكناً في صفات القيادة، وليس ثم مثله في الفكر العسكري، استلم القيادة بعد قتال دام سبعة أيام، وعدد المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف وقد يصل إلى الأربعة، ومما يثير الدهشة أن عدد الروم يزيد عن مئتي ألف مقاتل، لكن مما يزيل العجب ما يفعله الإيمان والاعتماد على الله تعالى واليقين لوعده، بات رضي الله عنه وقد غير هيأة الجيش، فجعل الميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة إلخ ليتوهم العدو أنّ مدداً قد جاء المسلمين، فحمل عليهم خالد فولّوا، فلم يتبعهم، ورأى الرجوع بالمسلمين والحفاظ عليهم هو الغنيمة الكبرى.

٢. قصة عمرو بن العاص:

اختاره ﷺ لقيادة سرية ذات السلاسل[1] وكان من بين جنده أبو بكر وعمر وكبار وسراة الصحابة، ولم يمض على إسلامه إلا أربعة أشهر، وهنا تتجلى قضية الأفضل والأورع والأقدم بأنه ليس هو المقياس لاختيار القيادة، وحدث في هذه السرية أمور، منها:

أن زمن هذه الوقعة كان في شدَّة البرد، وكانوا يسيرون في الليل ويكمنون -: يختفون- بالنهار، ولما دخل وقت صلاة الفجر أصبح عمرو رضي الله عنه جنباً فلم يغتسل لشدة البرد، فطلبوا منه أن يغتسل فأبى، ثم تيمَّم وصلَّى إماماً بهم، فأثار حفيظتهم عليه لِمَ لَم يغتسل والماء موجود، ثم ساروا بالليل والبرد شديد، ثم وقفوا استعداداً للمعركة، فأردوا أن يشعلوا ناراً فمنعهم من وقود أي نار، ثم حدثت المعركة وكانت الهزيمة فادحة للمشركين، والنصر عجيب عظيم للمسلمين، وفر الأعداء أمامه كما جاء تصوير وتمثيل ذلك في قوله تعالى: ﴿كأنهم حمرٌ مستنفرة فرَّت من قسورة﴾ المدثر: ٥٠ . ٥١

فمنعهم من اللَّحاق بالعدوِّ وقال: ارجعوا.

---

١ - كانت هذه الوقعة سنة ثمان للهجرة في جمادى الآخرة تبعد عن المدينة مسافة عشرة أيام، قريبة من ماء لجذام يقال له: السلسل كذا قاله ابن إسحاق وغيره، وقيل: لأن المشركين ارتبط بعضهم في بعض مخافة أن يفروا.
وذكر ابن سعد في «الطبقات» (١٣١/٢) أنها تقع وراء وادي القرى.

وفي هذه الأحداث كان عمر رضي الله عنه في غضب شديد من هذا الصنيع، فجاء إلى أبي بكر يشكو له ذلك، فقال أبو بكر: يا عمر، لولا أنه خيرمنك في هذا الأمر ما ولاَّه النبي ﷺ عليك. انظروا الثقة برسول الله ﷺ، ثم لما عادوا إلى النبي ﷺ شكوا إليه ما حدث، فاستدعى عَمْراً يسأله عن تأويل ما فعل. وهذا هو تصرف المرشد المعلم الحكيم في هذه المواقف. وأراد أن يعرف ما وراء الأحداث، فقال عمرو: ألا يجوز لي أن أتيمم إذا خشيت على نفسي الهلاك، ولقد سمعت الله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ النساء: ٢٩ ؟ فأقره النبي ﷺ على ذلك

قال: ولمَ منعتهم من إيقاد النار؟ قال: منعتهم لما اقتربنا من العدو حتى نباغته وهم كُثُر قبل أن يعرفوا قلَّتنا، فأقرَّه النبي ﷺ

قال: فلمَ منعتهم من تَتَبُّع الفارِّين؟ قال: يا رسول الله عددنا قليل، وهم كُثُرٌ، فإذا تبعناهم فسينتشر جيشي ومن ثمَّ يتمزق؛ لأنهم يتوزعون في منطقة واسعة ونهزم، فأقرَّه النبي ﷺ.

فتصرف عمرو رضي الله عنه يدلُّ على ذكاء ودهاء وحنكة وبراعة وحكمة وعقل ومنطق وقدرة على اتخاذ القرار المناسب.

العبر من القصة:

تدلنا قصة عمرو على أمورٍ هامة وهو أنه لو شاورهم كان أولى، أو أنه لو ذكر لهم بعض تفسيرات يوضح بها حكم قراره فيتصرَّف والجيش طوع يده كان أجدر، ويكون الجيش غير قلق مرتاحاً معه، راضياً ممتثلاً، منفِّذاً لأوامره وهو مطمئن.

فالقائد الحكيم الذي يتفاعل مع جنده ويفهِّمُ ويفهَمُ، ويشير ويستشير.

٣ ـ قصة النعمان بن مقرِّن: فقد كان رضي الله عنه صاحب قرار سليم، ومجاب الدعوة، وهو أمير الجيش الذي افتتح نهاوند سنة: (21) هـ واستشهد وقتئذ، ونعاه عمر رضي الله عنه على المنبر وبكى.

كان قد وصل إلى نهر عظيم فأراد بعض الصحابة عبوره متحمسين مندفعين فقال: لِمَ نعبره؟.

فقالوا: لا نريد أن يقولوا عنّا جبناء ضعفاء، بل ليعرفوا بأننا أقوياء، لا نهابهم ولانخافهم. فرفض رأيهم، فألَحَّ عليه أحدهم، فقال له: نريد بالمكث ما تريد بالحثِّ، نحن نهدف بالمكث ما تهدف بالانتقال إلى الضفة الأخرى، فكلانا يطلب النصر، لكني أذكِّرك بما

حدَث مع أبي عُبيدٍ الثقفي رضي الله عنه وكان قائداً لمعركة الجسر بين جيش المسلمين وجيش الفرس، كان في المسلمين قلَّة، وكان العدوُّ كثيراً، فبعد أن عبروا الجسرَ إلى عدوهم جاء من أتلف الجسر، فحوصروا، فاستحرَّ القتل فيهم من قبلِ العدوِّ، ثم مَن لم يستطع السباحة مات من جهة الغرق، وما نجا منهم إلا قليل، لذلك لم يكن هذا القرار سليماً، ففي غاية الحماس التهور الذي يوُصلُ إلى إتلاف الجيش، كنتيجة الجبن والخور.

وكما قيل في ذلك: كلا طرفي قصد الأمور ذميم.

فالمعلومات الخاطئة تعطي قرارات خاطئة وبالعكس، والقدرة العقلية المنهجية تتجلى في اتخاذ القرارات. ونرى ذلك واضحاً في السيرة مع الحرص على المعلومات الصحيحة الحكيمة عند النبي ﷺ.

ثانياً ـ صفة الحكمة:

تدلّ على قدرة عقلية عالية متميزة

مثال لذلك: لما انتهت غزوة بني المصطلق وعاد جيش المسلمين إلى المدينة حدث في الطريق شجار بين غلام اسمه سنان بن وبر لأحد الأنصار، فقال: يا للأنصار، وبين غلام لعمر رضي الله عنه اسمه جهجاه الغفاري فقال: يا للمهاجرين، وذاك عند ماء المريسيع، فتنادوا: كلٌّ ينادي قومه، فكاد يحدث بينهم قتال، فتدخل ﷺ بحكمته ـ وكان شديداً حازماً صاحب كلام قوي ـ وهو القائد النبيه الذي يضعُ كلَّ

قول في محلّه، وهذا تفسير الحكمة ـ فوقت اللِّين يحتاج لكلام ليِّن وهكذا، وكما قيل: لكلِّ مقام مقال ـ فقال ﷺ: «أجاهليةٌ وأنا بين ظَهْرَانيكم؟، دعُوها، فإنَّها منتنةٌ»[1]. فسمع بذلك عبد الله بن أُبيٍّ فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقام عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبيُّ ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس إنَّ محمداً يقتل أصحابه»[2]. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين بعدُ، حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين قد كثروا . اهـ.

سياق آخر للقصة: كان عبد الله بن أُبيٍّ رأس المنافقين، شديد الحقد على النبي والمسلمين، فلما جلس مع من معه قال: فتحنا لهم البيوت، وأعطيناهم الأموال، وكاثرونا في الديار، فلما استقرَّ لهم الأمر، انظروا بماذا يكافئونا، يريدون أن يتسلَّطوا علينا، حقّاً كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكلك.

لقد قال كلمة في حقِّ النبيِّ ﷺ والمهاجرين في غاية الخبث والحقد والحنق والبغض، ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة... فنقل كلامه زيد بن أرقم رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ لجرأة هذا الفاجر المنافق، فلما وصل

١ - أخرجه عن جابر رضي الله عنه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، والترمذي (٣٣١٥)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٩٧٧) وله لفظ: (ما بال دعوى الجاهلية...).
٢ - وكذا جاء في «صحيح البخاري».

لعبد الله بن أُبيٍّ الخبر أسرع مباشرة خلفه إلى النبيِّ ﷺ ليكذبه، فسأله النبيُّ ﷺ فكذَّب زيداً وحاول تبرئة نفسه، ثم أنزل الله تعالى القرآن بألفاظه، مصدقاً لزيد رضي الله عنه في سورة المنافقون: ٨ .

معالجة المشكلة:

أمرَ ﷺ الجيش بالتحرك إلى المدينة وسار بهم ﷺ يوماً ونصف يوم حتى آذتهم الشمس، ثم لما وصلوا هرعوا جميعاً إلى النوم، فانشغل الناس عن حديث هذه الفتنة التي وقعت بالأمس من ابن سلول.

وفي الطريق استدعى ﷺ سيِّد الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال: هل سمعت ما يقول صاحبكم؟ لقد قال: لئن رجعنا..... فغضب سعد، وقال: بل أنت يا رسول الله الأعزُّ وهو الأذّلُّ.

ولمّا علم الخبر ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبي أوقف أباه بالسيف على مدخل المدينة: وقال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة.... ثم قال له: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله، والله لأنت الأذلُّ ورسولُ الله الأعزُّ. ثم أذن له ﷺ بالدخول.

قال الحافظ في «الفتح» (650/8): وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبي ما كان من أمر أبيه، فأتى النبي ﷺ فقال: بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي

يمشي بين الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نرفق به ونحسن صحبته» قال: فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين ينكرون عليه، فقال النبي ﷺ لعمر: «كيف ترى؟»[1] اهـ.

عالج النبي ﷺ المشكلة ببراعة فائقة في سياسة الأمور وتربية الناس والتغلب على مشاكلهم، واستقبل الأمر بصدر رحب، لم يعالج الأمر بعاطفة متأثرة، لكن ترك الأمر للحكمة وحدها أن تدبر، حتى كان من نتيجة هذه الحكمة أن انحسر عن عبد الله بن أُبي قومه، فكانوا هم الذين يعنفونه ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئاً.

النتائج المهمة: ظهر في هذه القصة ما كان يتصف به ﷺ من البراعة في الحكمة والسياسة، وفهمه في تدبير الأمور حتى غيَّر فكر ونظر الناس، وصحَّح موقفهم، كما أنه استغل القيادات التي معه ليساندوه في موقفه وليكون التماسك فيما بين المسلمين قائماً على أشدِّه.

هذا أسلوب فذٌّ يغاير موقف القائد الذي لا يستشير وكذا الذي يقوم حمية وعزة وعصبية وغضباً.

١ - وتمامه: «أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله؛ لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أمري.
وقد كان من أمر عبد الله بن أبي قبل هذا الحدث: أنه يقف قبل خطبة الجمعة فيقول: أيها الناس، هذا رسول الله أعزنا الله به، ونصرنا به، وأيدنا به، فاسمعوا له، ووقروه وأيدوه، وعظموه إلخ يهدف بذلك أنه أميرهم وسيدهم ومطاعهم فقام على عادته بعد هذا الخطب المخزي يريد أن يزيل آثار ذلك الحدث الفاضح له، فإذا بالناس يقولون له من كل ناحية في المسجد: اجلس يا عدو الله، اجلس أيها الخبيث، اجلس قاتلك الله إلخ حتى جلس ذليلاً مهاناً خاسراً خائباً.

ثالثاً ـ الاستطلاع:

ليستكشف الأخبار الدقيقة الصحيحة والتأكد منها.

فالمطلوب من القائد إذا أراد أن يصدر القرار الصحيح أن يرجع إلى أمرين:

١ ـ **المنهجية والقدرة العقلية والحكمة** حتى يسير على طريق واضح في اتخاذ القرار، ويزرع الثقة في قراراته.

٢ ـ **أن يكون له حرص على المعلومات السليمة**، فكلَّما توفرت المعلومات الصحيحة أكثر كلما كان القرار أكثر صواباً؛ كبناء النتيجة على المقدمات الصحيحة؛ لأجل ذلك كان ﷺ يكثر من السرايا الاستطلاعية قبل المعركة حتى يبني قراراته على معلومات سليمة، كما كان يخرج بنفسه يستطلع ويسأل ويبحث في استقصاء أخبار العدو.

تجلى ذلك في غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان فقد أرسل ﷺ عيناً ـ جاسوساً ـ ليتتبع أحوال الكفّار وليعلم عددهم، وفي بدر خاصَّة كانت معجزة ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إذ يُريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكنَّ الله سلَّم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يُريكموهم إذا

التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور﴾ الأنفال: ٤٣ . ٤٤ عاد العين ـ المخبر ـ إليه ﷺ، فقال له: «كم القوم؟» قال: حوالي المئة، وهذه الرؤية كانت ظنية غير دقيقة، فقال ﷺ: «كم يذبحون؟» قال: ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً، فقال ﷺ: «القوم بين التسع مئة والألف». وهذه أخبار يقينية استنبطها ﷺ من كمية طعامهم؛ لأن الجمل يطعم نحو المئة غالباً.

رابعاً ـ الشجاعة مع الذكاء والفطنة والحكمة والقدرة العالية

وهذه صفات تجلت في المصطفى ﷺ، فالقائد الجبان لا يمكن أن يقود بفعَّالية؛ لأنه سيتردَّد وسينسحب وسيضعف، وهذه الصفات تنعكس على جنده وتكون إنجازاته متزعزعة، ويفوِّتُ على نفسه اغتنام الفُرص ـ والفُرصة إذا فاتت عادت غصة ـ والقرار الجيد هو الذي يحدث في الوقت المناسب وفي المكان المناسب وفي الطريقة المناسبة.

الجبان الخوّار الضعيف لا يستطيع أن يكون مقداماً فلذلك يفوت على نفسه الفُرص وإن أتت مشكلة ولو صغيرة لا يستطيع حلَّها فتكبر وتتأزم وتتفاقم، ولو حسم الأمر من البداية لانتهى كل شيء ولما حدثت هذه المشاكل.

شجاعته ﷺ: كان النبيُّ ﷺ مثالاً في الشجاعة، بطلاً مغواراً وفارساً كراراً، لم يفرَّ البتة، قال علي رضي الله عنه: (لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا من العدو)، و: (كان من أشد الناس بأساً) وقال: (كنّا إذا احمَّر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه)، و: (كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو)، قال عمران رضي الله عنه: (ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب) وكان قوي البطش، ولما التفَّ عليه المشركون يوم حنين نزل عن بغلته وقال:

أنا النبيُّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب[1]

كان عنده ﷺ الشجاعة الحكيمة، فمرةً يتركهم يهجموا، ومرةً يأمر بالمكث والانتظار.

١ - أخرجه عن البراء بن عازب رضي الله عنه البخاري (٢٨٧٤)، ومسلم (١٧٧٦)، والترمذي (١٦٨٨) وفي (الشمائل) (٢٤٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

الشجاعة: هي اندفاع النفس مع ارتباطها بالحذر والحكمة، فإذا خلت عن هذين العنصرين فهي تهور وانتحار وإلقاء بالنفس إلى التهلكة، حتى إنه ليس من الشجاعة أن يقاوم الرجل مئة مثلاً.

نماذج من شجاعته ﷺ:

١ـ كان ﷺ مرّة يطوف بالكعبة وهناك جماعة من الرجال ماكثون كلما أتى بشوط هزؤوا به وسخروا منه، فلما انتهى من طوافه جاء إلى مجمعهم الخبيث، وقال: «يا معشر قريش، شاهت الوجوه، إنما جئتكم بالذبح»[1]. تصدَّى لهم بكلِّ قوة وعزة وشجاعة فارتعد القوم وخافوا وبدؤوا يطلبون السماح منه ويعتذرون إليه، فقد قام يقاوم عشرات ولا يخاف ولا يتردد؛ لأن الموقف يقتضي ذلك.

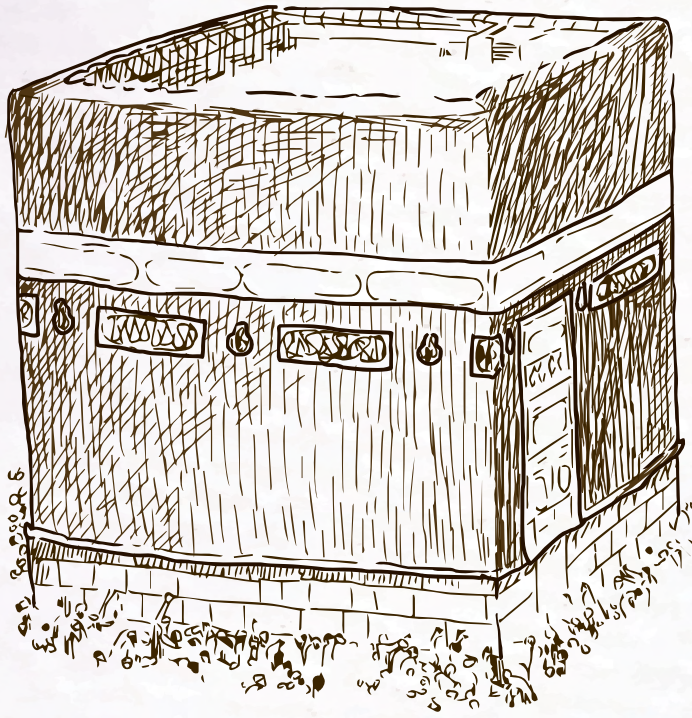

١ - أخرج عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ابن حبان كما في (الإحسان) (٦٥٦٩) نحوه، وفيه قال ﷺ: «يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح» وأشار بيده إلى حلقه، فقال له أبو جهل: يا محمد ما كنت جهولاً، فقال رسول الله ﷺ: «أنت منهم» وهو كما قال الشاعر:

ما أحسنَ المِحْرَابَ في المِحْرَابِ ... جمعَ الشجاعة والخضوعَ لربِّه

٢ـ وكان لا يفرُّ من معركة أبداً، صنديد بطل حكيم شجاع، عالم عظيم غير مبال ولا هيّاب ثابت القلب جريء. قال علي رضي الله عنه: (كنا إذا حمي الوطيس احتمينا برسول الله ﷺ)[1] ومن كان يريد الثبات يقف بجانب النبي ﷺ، هذا الموقف تجلى يوم حنين[2] حين فرَّ الناس ولم يبق منهم إلا القليل، فناداهم فلم يسمعوا، فقال ﷺ: «أي عباس، ناد أصحاب السمرة»[3]: أي بيعة الرضوان ـ وكان العباس رجلاً صيِّتاً إذا وقف بليل على سلع نادى غلمانه في الغابة وهي تبعد عنه أكثر من (٢٠) كم فيسمعهم[4] قال عباس رضي الله عنه ـ كما في مسلم ـ فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها قال: فقالوا: يا لبيك يا لبيك، فاقتتلوا والكفّار، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفّار، ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد» فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حدَّهم كليلاً وأمرَهم مدبراً، وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته. وأنشد أحدهم:

نصروا نبيَّهم وشدُّوا أزره ... بحنينَ يومَ تواكَلَ الأبطالُ

---

١ - الوطيس: شبه التنور، والضراب في الحرب، وقيل الوطء الذي يطس الناس أي: يدقهم. وهو من فصيح الكلام، ولم يسمع قبل النبي ﷺ:
روى عن العباس رضي الله عنه أحمد (٢٠٧/١)، ومسلم(١٧٧٥): «هذا حين حمي الوطيس». ويعبر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق.

٢ - قال تعالى في حكاية تلك الغزوة: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)ﷻ التوبة: ٢٥ . ٢٦ رضي الله عنه .

٣ - طرف من حديث العباس قبله.

٤ - وللصوت تأثير فعَّال في الجيش قال ﷺ: «صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل». أخرجه عن أنس أو جابر رضي الله عنهما أحمد (٢٠٣/٣)، وابن سعد في «الطبقات» (٥٠٥/٣)، والحاكم (٣٥٢/٣) وفيه: (وكان أبو طلحة رضي الله عنه وحده قتل يوم حنين عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم).

حتى إذا اجتمع معه ﷺ مئة رجل[1].. استقبلوا الناس فاقتتلوا، فلما هجم على الكفّار كان انصبابه عليهم كالإعصار، فشتتهم وفلَّ حدهم، وفرّق جميعهم، وشلَّ حركتهم، فما أن تكامل الجيش إلا وهزم الكفّار، وبدؤوا بجمع الغنائم[2].

هذا موقف يدلُّ على الشجاعة المثالية الغيرعادية.

٣ ـ وكذا تجد شجاعته ﷺ حكيمة منضبطة في يوم أحد حيث استشار ﷺ الناس وقد أراد أن يبقى في المدينة؛ لأنه أصعب على الكفار ـ والجيوش يصعب عليها احتلال المدن ـ فعين الحكمة أن تجعل موضوع المعركة أشدّ على الأعداء، فكان أغلبية الصحابة قد أصروا على الخروج، فهنا تنازل النبيُّ ﷺ عن رأيه ووافق رأيهم.

وهذا من صفات القيادة العظيمة بأن يستشير ويراعي من حوله ولا يكون معتداً بنفسه، منفرداً برأيه، مصدراً لأوامره، ملزماً للآخرين بما يستثقلونه، ولا يكون متسلطاً قاهراً وبخاصة عندما يكون منهم إصرار أكيد أو إجماع شديد.

---

١ – ذكر ذلك ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤٤٥/٢).

٢ – التي لم يُر مثلها من قبل، فكان فيها سبي للنساء والذراري، وأنواع من النعم فمن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، فساقها إلى الجعرانة لأجل أن تقسم. انظر «السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة» (٤٧٢/٢).

وافق النبيُّ ﷺ أصحابه ثم دخل بيته ولبس لأمته والبيضة وأمسك بالسيف، ثم خرج بالحديد، فقالوا: يا رسول الله لعلنا أكرهناك على الخروج وإن أردت البقاء في المدينة فنحن معك، وبالحقيقة فكلا الأمرين مقبول وفيه النصر وصار النبيُّ بقولهم هذا بالخيار بين البقاء والخروج، عندها رفض النبي ﷺ الرجوع إلى رأيه الأول، وقال: «ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأمة حربهِ أن ينْزعها حتى يلقى العدوَّ»[1].

كان في هذا من العلم للقادة على مرور السنين أنه إذا اتفق الناس على رأي أو عزموا على شيء أو أجمعوا على أمر وصدر القرار.. أنه لا مجال للتردُّد بعد ذلك ولو كان فيه غلط.

بهذا يتجلى معنى الحزم في حياته ﷺ، فالحزم ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة. والشورى تكون قبل الاتفاق، فقد نتحاور ونختلف ويقول كل رأيه، فإذا اتفقنا على شيء فلا تردد، ثم أحاول في مرة أخرى إقناعهم وأبين خطأهم وعدم إصابتهم في رأيهم السابق. فمن صفات القيادة الحزم والاستشارة.

الشجاعة ليست بالتهور ولا بالإقدام المستمر بلا توقف كمتابعة كرة القدم مثلاً، فقد تظهر أحياناً في الانسحاب كفعل خالد رضي الله عنه

١ - أخرجه عن عروة بن الزبير البيهقي في (السنن الكبرى) (٧/ ٤٠ . ٤١) اللأمة: الدرع.

في مؤتة، ومرّ الكلام عنها قريباً، كان رضي الله عنه تراجع أفضل وأعظم انسحاب في التاريخ حيث لم يُصب أحد من رجال جنده.

كان خالد تولى الجيش بعد مقتل الأمراء الثلاثة الذين عينهم رسول الله ﷺ، فلما تولى الإمرة انسحب خالد بجيشه إلى المدينة قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ الأنفال: ١٥ .

هنا تتجلى القدرة العقلية غير العادية والموهبة العسكرية والتمكن من المهمة وهذه من صفات القائد فكل من يريد قيادة شيء عليه أن يكون متمكناً منه ولو كان مدرسة أو مشفى، ليس من الضروري أن يكون المدير للمدرسة مدرساً ولا المدير للمشفى طبيباً لكنه يجب أن يعرف ويفهم كيف يدير المدرسة أو المشفى.. إلخ.

كان جيشه في مؤتة يعادل واحداً من ست وستين ضعفاً من الروم والجموع الأخرى، هذه نسبة إذا ما تصورتها تجعل رقعة الجيش المسلم أمام حشود الروم أشبه بساقية أمام نهر كبير مائج، مع ما لديهم من عُدةٍ وذخيرة وسلاح وما بهم من أُبَّهة وبذْخ، وأما حال المسلمين إذ ذاك فإنهم يعانون من القلَّةِ والفقرِ. فالمسلمون ـ كما قال ابن رواحة ـ لا يقاتلون بعدد ولا قوَّة ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا

الدين الذي أكرمهم الله به إما ما وعد الله من نصر وتأييد وغنيمة، أو جنة نعيم خالدين فيها أبداً.

كان شهداء المسلمين اثنا عشر رجلاً أما أولئك فلم تحص قتلاهم. فقد كان في تغيير مظهر الجيش ورایاته ثم بالهجوم الشديد العنيف حتى أخذ يحصد الرؤوس ويفلق الهام حتى قيل: إنه تكسَّر في يده تسعة أسياف، فزعزع صفوفهم وهو في المقدمة، أيُّ قدوة ضربها للناس، كان رمزاً يصدِّق قوله بفعله، فلما رأى جيش الروم ينهار ويتفتت والنصر يتجلى ويلوح.. أصدر خالد أوامره فجأة بالانسحاب وليتراجعوا إلى الوراء، فأصدر قائد الروم أوامره بعدم اتباعهم خشية أن يكون خالد قد نصب له كميناً، توقف عندها جيش الروم يتأمل، وخالد ينكص على عقبيه والعدو ينظر إليه، حتى بعدت الشقة بينهما، وعادت جيوش المسلمين سالمة منتصرة بعددها وعددها تقطع المسافات الشاسعة البعيدة التي تبلغ نحواً من (1400)كم حتى وصل إلى المدينة المنورة ظافراً؛ لأنه لم يقتل في تراجعه أحد من رجال جيشه ـ والمعلوم أن المنسحب تحدث له خسائر لا تحمد عقباها، فقد يدع كل شيء ويفرُّ بجسده فحسب، كما قال الشاعر:

ألقى الصحيفة كي يخفف رحله والزاد حتى نعله ألقاها

إلا خالد في مؤتة ـ هذا ما يبلور ويتوِّج صنيع خالد في قيادته.

القيادة: هي الشجاعة المنضبطة الفعّالة الحكيمة الفذَّة النادرة، الحذرة الفطنة، البارعة المتفوِّقة في أسمى معانيها.

وللمزيد من هذه الصفات العلية التي خصَّ باستشفافها من خبرَ وتَدبَّر وسبرَ أغوار السيرة النبوية المصطفوية الرائعة، فإنها تبرز عند ذلك وتتجلى من خلال وظلال حياته صلوات الله وسلامه عليه تسليماً كثيراً.

فاللّهم إنا نسألك متابعةً للنبي المصطفى والرسول المجتبى ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال مع الإيمان بك وبملائكتك وبكتبك وبرسولك وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره منك وحدك لا شريك لك وإنَّ من إيماننا الإيمان بقول نبيك المصطفى ﷺ: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم بأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[1]. وفيه: وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين والإيمان.

١ - رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما أحمد (٣٠٧/١) وغيره.
وهو طرف حديث عند الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.
قال عنه النووي في «الأذكار» (١٢٢٦): هذا حديث عظيم الموقع، والله أعلم.

خامساً ـ الإرادة القوية الثابتة:

مرَّ الرسول ﷺ في حياته بفترات خطيرة وصعبة جدّاً، لكنَّ إصراره على الاستمرار إن كان في المعركة أو كان في مجال الدعوة هو الذي أوصله في النهاية إلى النصر مع توفيق الله سبحانه وتعالى له، وكذلك نرى للتمسك بمبادئه بقوَّة شأناً فعالاً، مع الإرادة الجازمة الصلبة التي لم تلن، وكذا نجد في صبره وتحمُّله الشدائد سنوات طويلة دون أن تظهر له النتائج السريعة يتجلَّى تصميمه وإصراره على إرادته ﷺ .

بناء شخصية المسلمين:

فمثلاً : كان عدد المسلمين قبل الهجرة بالنسبة لما بعد الهجرة عدداً بسيطاً ضئيلاً جدّاً قد لا يصل إلى مئتي مسلم مع الدعوة المستمرة ليلاً ونهاراً في فترة لا تقل عن ثلاثة عشر سنة ومع ذلك نرى عزيمته وأنه لم ييأس ﷺ، لكنه كان قد قوَّى بنيتهم وعمل على تثبيتهم فكانوا دعائم وركائز إيمانية لا يستهان بها، وأساطين فضل ونبل وفداء وتضحية، أما من حيث مقاييسُ ومعايير البشر ـ على حسب العدد ـ فهذه الحصيلة ضعيفة، وفي العادة أن الناس إذا رأوا النتائج قليلة قد تخور عزائمهم.

فالقائد المتمكّن يصبر ويتحمل المسؤولية والنتائج.

سادساً ـ الشورى وتبعاتها:

ومثلاً: عندما يستشير أصحابه بشيءٍ فيعمل برأيهم و مشاورتهم ـ ويكون في ذلك في مجانبة الصواب ـ فيخفق في النهاية فإنه لا يلوم ولا يعنِّف ولا يثرِّب عليهم؛ لأنه قائد فلذلك يتحمل التبعات والمسؤولية والنتائج؛ فهذه هي الإدارة الحكيمة عنده ﷺ.

جاء ـ في مشورته ﷺ عن يوم أُحد ـ أنه أراد والمُسِنُّون من أهل المدينة المكث في المدينة، وأما شباب المسلمين فقد ألحوا وأرادوا الخروج؛ لأن منهم من لم يشهد بدراً فاستجاب لهم ﷺ وتابع رأيهم وقابل الكفار خارجها، فلما كانت الهزيمة للجيش ـ ولو صورة ـ فإنه يتحمَّل المسؤولية بنفسٍ ثابتة مستقرة ولم تهتزَّ عزيمته وأخذ على نفسه يعالجها بأريحية، ولم يكلم في شأنها الآخرين؛ لأنه هو صاحب القرار، فلو كان مثل هذا الأمر مع غيره ﷺ لأشبع ـ وزيره أو قائد جيشه أو من أشار عليه ـ لوماً وتعنيفاً وإهانة، فقد يعزله من منصبه أو يسجنه أو يقتله أو يتهمه...

بات المسلمون في المدينة بعد الرجوع من معركة أُحد في حالة الطوارئ العسكرية وقد أنهكهم التعب وهم يحرسون مداخل المدينة، ويحرسون رسول الله ﷺ وهو يفكر في موقفٍ يحسب به تصرفات من العدو، فيقول في نفسه: لعلَّ المشركين يندمون على انصرافهم فيرجعون لغزو المدينة مرة أخرى من جديد.

سابعاً ـ التصميم على دحر العدو:

ثم بعد أُحد مباشرةً أصدر النبيُّ ﷺ أوامرُه بأنّ على كلَّ من شارك في جيش أُحد المسير واللّحاق إلى لقاء العدوِّ ومتابعته[1].. وكان ذلك يوم الثامن من شوال من سنة ثلاث للهجرة ـ وقال: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال». فاستجاب له المسلمون على ما بهم من جراح وآلام وخوف وقالوا: سمعاً وطاعة، واستأذنه جابر بن عبد الله ـ وكان تخلف عن أحد لأجل أخواته ـ فأذن له.

فقاموا ولبُّوا القائد الذي يحرِّك أتباعه نحو الهدف[2].

فسار الرسول ﷺ والمسلمون معه بعملية متابعة ومطاردة للجيش المكي المنتصر الراجع، وانطلقوا حتى بلغوا «حمراء الأسد»[3] وتقع على بُعد: (25) كم ـ فعسكر ﷺ والجيش هناك، وأقبل في ذلك الوقت معبدً الخزاعي فأسلم ـ كما في رواية ـ وكان ناصحاً لرسول الله ﷺ لما كان بين خزاعة وبني هاشم من التحالف، فقال: أما والله يا محمد لقد عزَّ علينا ما أصابك، ولوددنا أنَّ الله عافاك، فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق بأبي سفيان فيخذِّله.

---

١ – قال تعالى في حكاية حالهم رضي الله عنهم: (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)ﷺآل عمران: ١٧٢رضي الله عنه.

٢ – هكذا انصهر الأتباع استجابة لهذا التحريك والإيمان بهذا الهدف: وفي الحالة هذه لم يكن مطمع في غنيمة أو غرض دنيوي، إنما هو التطلع إلى النصر أو الشهادة.

٣ – بات بها ﷺ وجيشه ثلاثة أيام، وكان من هدف هذه الغزوة الهجوم على جيش قريش المنصرف إلى مكة.

ثامناً ـ اكتشاف مكيدة العدوّ:

وصلت الأخبار لقريش[1]، ولم يكن ما خافه أو توقعه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقّاً وكذا بعض قبائل العرب من حول المدينة لمّا شاهدوا الهزيمة طمعوا في المسلمين، بعد مسيرهم حاولوا الكرَّ والهجوم على المسلمين فإنهم ـ لما وصلوا إلى الروحاء وتقع على مسافة: (70) كم ـ ندموا وتلاوموا فيما بينهم حيث ضيَّعوا فرصة ممتازة، وعلى أنهم لم يصنعوا شيئاً وقد أصابوا شوكة المسلمين وضعضعوا حدَّ قوتهم، ثم تركوهم وفيهم من بقي من رجال قد يجمعون لكم فارجعوا لنستأصل شأفتهم، فهنا لعلَّ الأمر كان سطحياً عند من لم يقدِّر قوَّة الفريقين؛ لذلك خالفهم أحد زعمائهم وهو صفوان بن أمية فقال: يا قوم لا تفعلوا، فإني أخاف أن يجمع عليكم محمّدٌ من تخلف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم.

١ - ألا يُتعجب ممَّن يفعل هذا، لو سبرنا التاريخ كلّه فإنا لا نجد مثله ﷺ، لا نستطيع أن نرى شخصية في قوّة هذه الإرادة والعزيمة والهمة، فإن صحابته رضي الله عنهم كانوا في موقفهم هذا معه قد أعطوا نموذجاً رائعاً نادراً ـ في التاريخ ـ فرداً، ويدلُّ بكل وضوح على فراسة وشدة شكيمة القائد الذي يتحمل المسؤولية ويستطيع أن يحوِّل مجريات الأحداث: من هزيمة إلى نصر، ومن خوف إلى أمن، ومن ضعف إلى قوة، ومن مدافع إلى مهاجم.... لم يتعامل ﷺ مع صحابته وجيشه بردّة الفعل التي حدثت، وإنما تعامل مع صنع الحدث واقع الحال والفعل.

حوار المشركين: رُفض هذا الرأي أمام الأغلبية، ثم أجمع جيش أبي سفيان على المسير نحو المدينة ثانية، فلما أزمعوا على التحرك وصل معبدٌ الخزاعي إلى أبي سفيان، **فقال**: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد: محمّدٌ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قطُّ يتحرقون على لقائكم[1]، وقد اجتمع معه من تخلَّف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ قطُّ مثله.

قال أبو سفيان: ويحك ما تقول؟

قال: واللّٰه ما أرى إلا أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، أو يطلع الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: واللّٰه لقد كنا أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم،

قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح.

ضعضعة جيش أبي سفيان: بهذا انهارت عزائم الجيش المكي القافل للرجوع، وأخذه الفزع والرعب فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والعودة إلى مكة.

بَيْدَ أنَّ أبا سفيان أراد أن يقوم بحرب دعائية يضعف بها الخصم ويكفُّ فيها جيش المسلمين عن مواصلة المطاردة وينجح بها في اجتناب لقاء النبي ﷺ وجيشه، فمرَّ به ركب من عبد القيس يريد المدينة،

---

١ - جاء جيش المسلمين متحفزاً يريد أن ينتصر بعد الهزيمة وكان الآية الكبرى من الله تعالى أن أوقع الرعب فجأة في قلوب المشركين، وتصوروا . كما أخبرهم صاحبهم . ما لمحهُ النبي ﷺ عن بُعد: من أنَّ محمداً وأصحابه جاؤوا الآن ومعهم الموت المؤكد لينثروه على جند الكفر والطغيان. فكان في هذه الوقعة درساً بليغاً للمسلمين جمع بين مظهري الإيجابية والسلبية في وقت واحد.

فقال: هل أنتم مبلِّغون عنِّي محمَّداً، وأوقر لكم رواحلكم هذه زبيباً بعكاظ إذا أتيتم مكة؟

قالوا: نعم.

قال: فأبلغوا محمَّداً أنّا قد أجمعنا الكرَّة عليه؛ لنقتله ولنستأصل أصحابه.

محاولة الحرب النفسية ضد المسلمين: فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وأصحابه وهم بحمراء الأسد فأخبروهم بما قال أبو سفيان، وكان من قولهم ـ ما قصَّه الله علينا في القرآن الكريم ـ: ﴿الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤ .

ومنه نخلص إلى أنَّ القائد الفعّال يحتاج أيضاً إلى أمر عظيم هو:

تاسعاً ـ التوازن:

هو الذي يثبت الجأش، ويجعل العزيمة لا تضعف ولا تخور ويعتبر أوّلاً التوازن في نفسيته، وبالعقل الحكيم المنضبط، فلا اهتزاز ولا مزاجية تحرِّكه. فلا هزيمة تكسره، ولا نصر يغرُّه.

نماذج عن الفرح بالنصر:

فمثلاً: نرى كثيراً من الرَّعاع يبطرون إذا وجدوا بصيصاً من نصر ولو في أشياء تافهة ككرة ونحو ذلك.

هذه النفسية المتوازنة ذات البسالة المتفوقة والعبقرية الرائعة تجدها عنده ﷺ واضحة، وهي أيضاً من الأبجديات عند كل قائد فعّال، هذه نفسية صاحب الكفاءة والجدارة الذي يتقدم وينجح، ويقود القيادة السليمة.

ثبات النبي ﷺ في الحرب:

فمثلاً إنا نرى النبي ﷺ في وقعة أحد حيث لم يبق معه إلا تسعة نفر وقد ضرب بحجر فوقع لشقِّه ﷺ وكسرت ثنيته، وكُلمت شفته السفلى، وشجَّ في جبهته، ثم ضربه ابن قمئة بالسيف على عاتقه ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر، ثم ضرب عن وجنته، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ﷺ وكان قد قال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم: «أقمأك الله»[1]

١- أورد ابن حجر في «فتح الباري» (٣٧٣/٧) عن الطبراني فقال: فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطّعه قطعةً قطعة.

وروى عن أنس رضي الله عنه مسلم (١٧٩١) وغيره قوله ﷺ: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم؟ فأنزل الله تعالى: (ليس لك من الأمر شيء) آل عمران: ١٢٨ رضي الله عنه.

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢): كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فمن تأمل قوله ﷺ والحالة هذه.. علم معنى قوله تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم: ٤ رضي الله عنه ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه شفقة عليهم، وكذا جعل لهم عذراً وهذا غاية الكرم التي لا يشاركه فيه أحد.

لقد ظهر من هؤلاء النفر التسعة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والبسالة والبطولة والتفاني حيث كرَّ عليه المشركون وهاجموه بثقلهم لما سمعوا صوته يقول للمسلمين: «هَلُمَّ إليَّ، أنا رسول الله».

مع ذلك نرى رسول الله ﷺ أنه هو القائد الفعّال الذي لا يلوم غيره، نجده متوازناً وبخاصة في نفسه مع عقله الحكيم المنضبط كالجبل الراسي، ولننظر مثلاً بعد هذه الأحداث هل خارت عزيمته، لا ثم لا، لكنه لجأ إلى الجبل الأشم يتدرّأ به ليتمكن من عدوِّه وهو في آلامه وجراحه، حتى إن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال: لم يستطع النبي ﷺ أن يصعد على الصخرة حتى قعد على ظهر طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه، ثم ارتقى عليها. فلما أسند رسول الله ﷺ في الشِّعب أدركه أُبيُّ بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة فانتفض انتفاضة، ثم استقبله - وأبصر في ترقوته فرجة بين سابغة الدرع والبيضة - فطعنه فيها طعنة تدحرج منها عن فرسه وكانت خدشاً غير عميق، فاحتقن الدم فيها، فقال: قتلني محمد، ومات في عودته بسَرِفٍ وهو يخور خوار الثور.

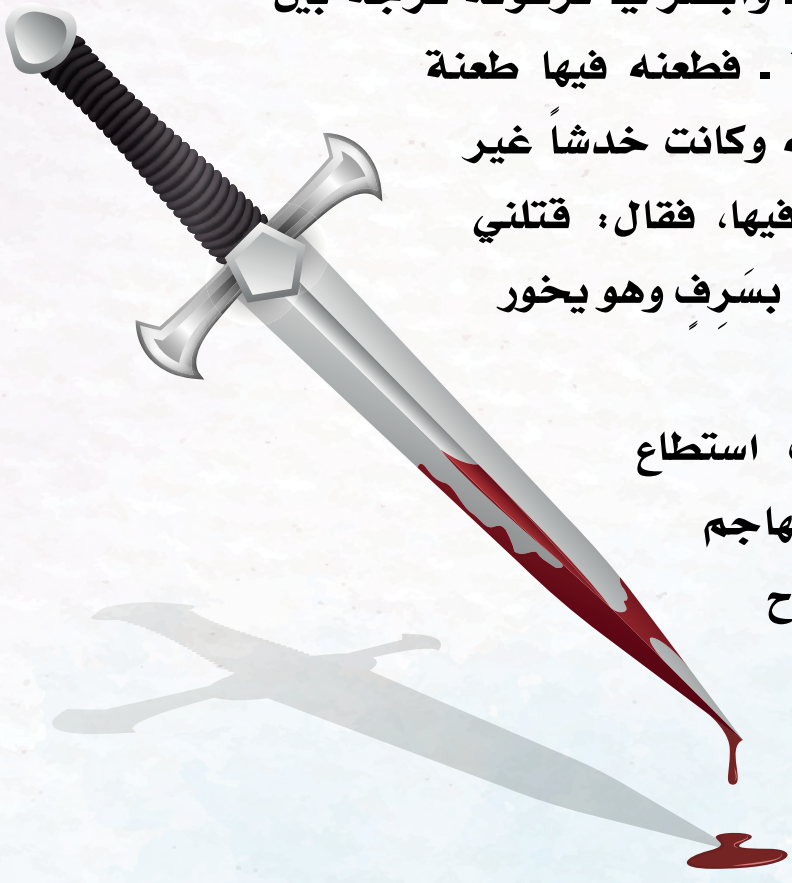

لنرى النبي ﷺ كيف استطاع ضرب هذا الطاغية المهاجم رغم الضعف والجراح والآلام.

موقفه يوم الفتح:

كان النبي ﷺ أخضع ما يكون يوم الفتح، لننظر إلى موقفه في انتصاره العظيم الأكبر يوم فتح مكة - شرفها الله تعالى وزادها تعظيماً - وهي عاصمة الجزيرة وقاعدة سيادة العرب كيف دخلها؟

دخلها ﷺ مطأطأ الرأس متواضعاً لله ربِّ العالمين أعظم التواضع على ما أكرمه الله به من الفتح مستغرقاً في عبوديته شاكراً الله على نصره وتأييده حتى إن لحيته كادت تمس راحلته من شدة انحنائه خضوعاً وتذللاً من ذي طوى.

لم يكن لنشوة النصر والظفر العظيم تأثير على نفسه، ولم يكن عنده شيء من التعاظم أو التجبر؛ ليستولي على مشاعره، لم يدخلها بالأفراح والابتهاج، ولا بضرب الطبول والاحتفالات والغرور والغناء بالأهازيج[1].

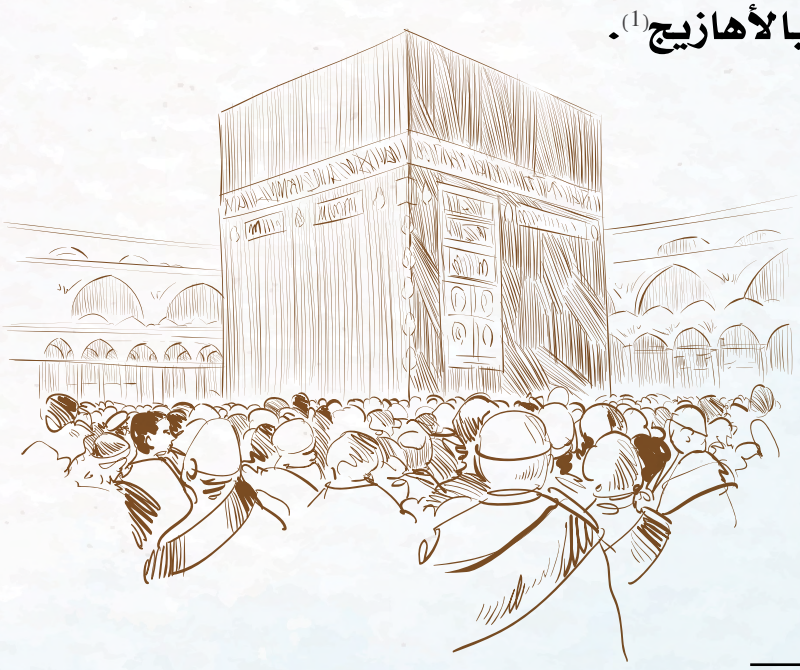

١ - كمن تسكرهم الفرحة فيمروا على أحكام دين الله لاهين ساهين، كم قائد في التاريخ لم يغتر في النجاح أو النصر، فمن النادر وجود قائد لا يتأثر ولا يعبأ مثل النبي ﷺ.

كيفية معاملة الملوك وذوي المكانة:

هنا نظر ﷺ إلى نتيجة ما لقيه وأصحابه رضي الله عنهم من العذاب، وكيف أعاده الله تعالى إلى بلده ـ التي أخرجته ـ عزيزاً منصوراً مكرّماً.

ومثلاً آخر: نراه جلياً في قصة عديّ بن حاتم الطائي المعروف، أسلم متأخراً وعرف الصحابة الكبار قدره ـ ومن صفات القائد أن ينْزل الناس منازلهم، ويعطي لكلٍّ مكانته ـ فلا يعامله كعامة الناس ـ كما يرى ذلك بعضهم من باب المساواة ـ فلمّا دخل وفد طيئ على الخليفة عمر رضي الله عنه؛ قال عدي : أتينا عمر بن الخطاب فجعل يدعو رجلاً رجلاً، فلما وصلت النوبة إليَّ قلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال: بلى، أنت أوَّل من بيَّض وجهه، أسلمت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذا أنكروا. فقال عدي عندئذ: لا أبالي إذن.

مجريات قصَّة إسلام عديٍّ: قال عدي ـ عن قصة إسلامه قبلها وكان سنة سبع ـ: لم يكن رجل من العرب كان أشدّ كراهة لرسول الله ﷺ حين سمع به منِّي، يقول عن نفسه: كنت امرءاً شريفاً نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع ـ أي آخذ ربع محاصيلهم كإتاوة ـ وكنت في نفسي ركوسياً ـ: أي على دين آخر بين اليهودية والنصرانية ـ وهذا بيني وبين نفسي لا يعلمه أحد، وكنت ملكاً في قومي طيئ، فلما سمعت بالنبيِّ وجيوشه قلت لغلام لي عربي: لا أبا لك، أعدد لي من إبلي أجمالاً سريعة، ثم قلت له: إذا رأيت رايات محمد فأخبرني، ففي يوم من الأيام جاء الغلام وقال لي: يا عدي، ما كنت صانعاً إذا غشيتك رايات محمد فاصنعه الآن، فإنهم قد جاؤوا.

فرار عدي إلى الشام ووقوع أخته في الأسر:

قال: فأخذت جمالي وزوجتي وأولادي وتركت أهلي وغادرت إلى الشام ـ هذا قائد تخلى عن أهله وقومه وأخته ـ فلمّا جاءت جيوش المسلمين انتصرت على طيئ واستاقوا الأسرى ومن بينهم سفّانة بنت حاتم، أخت عدي، فجاؤوا بهم إلى المدينة عاصمة النبي ﷺ فوضعوا في حظيرة بجانب المسجد، فمرَّ بها رسول الله ﷺ فقامت، وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ مَنَّ الله عليك، فقال لها: «من وافدك» قالت: عدي بن حاتم، قال: «الفارُّ من الله ورسوله»؟ ثم مضى وتركها، فكررت هذا من الغد وبعده ـ بإشارة من علي رضي الله عنه ـ، فقالت: فامنن عليَّ مَنَّ الله عليك، فَمَنَّ عليها، ثم قال: «لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثمَّ آذنيني»[1]. فلما أعلمته بأنها وجدت رفقة ثقاة من بُلَي كساها رسول الله ﷺ وأعطاها نفقة فشكرت النبيَّ ﷺ على هذا الجميل وكان مما قالت:

(شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردِّها عليه).

١ - هذا من حرص القائد وحبه لرعيته وأتباعه.

ثم ارتحلت حتى قدمت على أخيها عدي بالشام فوبخته على صنيعه[1]، فلم يجد ما يعتذر به، ثم أخبرته بما لقيت من رسول الله ﷺ من كرم وحسن معاملة، فقال عدي: ما ترين في هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يك نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذلَّ وأنت أنت[2]. تعني في عزّ، فما كان منه إلا أن أخذ بمشورتها، وقدم على النبي ﷺ[3]، ثم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه.

العبر والنتائج من قصة عدي في القيادة:

نرى هنا ما تجلى من صفات القائد الفذ: ومنها أنه حدثه عن الهدف والمستقبل، كما شاهد الكرم، والتواضع، والثقافة الواسعة، والوعود المحققة بالنتائج الفعّالة الصادقة التي تعزز الثقة الأكيدة والوَلاء لهذا المنهج النبويّ الرفيع عند الأتباع، ومعرفة منْزلة الناس، وتقديم المهمِّ لا يشغل عن الأهمِّ، والاهتمام بضعفة الرعيّة، ثم توظيف عديّ على طيئ وصدقاتها آخراً.

---

١ - فقالت لما وقفت عليه: القاطع الظالم، احتلمت أهلك وولدك، وتركت بقية والدك: شعبك عورتك. القائد الفعال لا يترك رعيته، فقال وهو خجل: أي أُخيَّه، لا تقولي إلا خيراً فو الله مالي من عذر.

٢ - أخرج قصة سفّانة الطبراني وأوردها الخرائطي في «مكارم الأخلاق» من حديث علي رضي الله عنه، انظر «الإصابة» قسم النساء ت: (٥٤٦)، و«السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة» (٢/٤٩٣ ـ ٤٩٤) وفي رواية: فأنت في عزٍّ.

٣ - حتى دخل مسجد النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «من الرجل»؟ فقلت: عدي بن حاتم، فأخذني إلى منْزله، وبينما هما في الطريق يمشيان إذ لقيت رسول الله ﷺ امرأة عجوز فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد حشوها ليف فقدَّمها إلى عدي، وقال: اجلس على هذه، قال عدي: بل أنت تجلس عليها فامتنع النبي ﷺ وأعطاها له، وجلس هو على الأرض، فقلت في نفسي والله ما هو بملك. فقال لي: «يا عدي أسلم تسلم» ثلاثا، فقال عدي: إني على دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقال عدي: أأنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، ألست ركوسياً. دين بين اليهودية والنصرانية. تأكل المرباع، قلت: بلى، قال: «هذا لا يحل لك في دينك» قلت: نعم، وكان رأى من تواضع النبي ﷺ مع الناس ما جعله يعتقد أنه نبي مرسل، يعلم ما يُجهل، وليس بملك. ثم قال: «يا عدي لعلك ما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى من حاجتهم تقول: اتبعه ضعفاء الناس، ومن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب من قوس واحدة مع حاجاتهم، فو الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، أتعرف الحيرة؟ قال: لم أرها ولكن سمعت بها، قال: فوالله ليتمنَ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى المُلك والسلطان في غيرهم وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم». فقال عدي: فلقد رأيت اثنتين وأحلف بالله لَتجيئنَّ الثالثة، يعني فيض المال. ومات رضي الله عنه سنة (٦٨) هـ.

وَنجد أيضاً صفات أخرى في قصّة الحديبية وقصَّة أبي بصير الآتية:

عاشراً ـ ومن صفات القائد الفذّ:

أنه يستطيع أن يحلِّل الأمور والأوضاع ويرتبها ليبني عليها المستقبل ويرتب حساباته على هذا الأساس.

فكلّما كان تحليله للواقع سليماً، وفهمه للماضي جيداً كان احترامه وتقديره للمستقبل عالياً. يقول الغربيون في صفات القائد الفعّال أيضاً في هذا المجال:

احترام المستقبل، واعتبار الحاضر، وفهم الماضي.

نرى هذه المعاني واضحة في قصة صلح الحديبية.

مجريات صلح الحديبية: كان النبي ﷺ خرج محرماً لأجل العمرة في ذي القعدة مصطحباً زهاء ألف وخمس مئة من المهاجرين والأنصار، ـ فلما وصل نبأ خروجه ﷺ إلى قريش تعاهدوا أنه لا يدخل عليهم أبداً ـ وسارت جحافل المسلمين حتى بلغوا كُراع الغَميم ـ واد بينه وبين المدينة مسافة (350) كم ـ وكان تفادى ﷺ الاصطدام بخيل المشركين، فأخذ طريقاً غير طريقهم من جهة ثنية المُرار ـ : شجر تأكله الإبل ـ وفي هذا المكان بركت ناقة رسول الله ﷺ فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأت القصواء ـ أي: حرنت ـ فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء وما هو بخُلق لها، ولكن حبسها حابس

الفيل عن مكة، واللّه لا تدعوني قريش اليوم إلى خِطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا، فنَزلوا ولم يكن بالوادي ماء، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً فنَزل به في بئرٍ فغرزه في جوفه فجاش بالماء حتى شربوا وسقوا دوابهم»[1].

رسل قريش للمفاوضات: رأت قريش أنها لا قِبل لها بحرب المسلمين، ونمي إليهم أن رسول الله ﷺ لا يريد حرباً، فأرسلوا إليه عدداً من شخصيات مختلفة؛ ليفاوضوه.

صدّ المسلمين بالطرق السلمية:

١ ـ أرسلت قريش بُديل بن ورقاء الخزاعي يسأل عن مجيء المسلمين فأخبره ﷺ بمجيئه فعاد إليهم ـ وكان ممن يعظم زيارة البيت ـ قائلاً: إنكم تعجلون على محمد، وإنه لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً للبيت. فقالوا: لا نُريد أن يدخل محمدوجنوده معتمراً وتسمع العرب أنه دخل علينا عنوةً وبيننا وبينه الحروب قائمة، لا واللّه لا يدخلها أبداً ومنّا عين تطرف.

٢ ـ ثم بعثوا مِكْرز بن حفص فلما رآه ﷺ قال: «هذا رجل غادر» فلما انتهى إليه.. قال له مثل ما قال لبديل، فرجع فأخبرهم.

وهذا يدل على معرفة القائد بصفة خصمه وأن معرفته به كانت عميقة.

١ - أخرجه مطولاً عن المسور بن مخرمة ومروان رضي الله عنهما البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) في الشروط.

٣ ـ ثم بعثوا حُليس بن علقمة سيد الأحابيش، فلما رآه ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون ـ يتعبدون ويعظمون الشعائر ـ فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه» فلما رأى الدم يسيل عليه ورأى القلائد.. رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فأخبرهم فقالوا: إنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب حليس وقال: يا معشر قريش، والله ما حالفناكم على هذا، أيصدُّ عن بيت الله من جاءه معظماً، والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، قالوا: مهْ، كفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى.

٤ ـ ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي ـ وهم يرونه حكماً ليس بمتهم ـ فجاء إلى النبيّ ﷺ فقال: يا محمد جمعت أوشاب ـ أو أوباش: أخلاط ـ الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك ـ أهلك وعشريتك ـ لتفضها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل[1] قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وايم الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، فنال منه الصديق أبو بكر رضي الله عنه وقال: نحن ننكشف عنه؟ ويحك، فقال: من هذا يا محمّد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة» ثم كلَّمه رسول الله بنحو ما كلّم به من سبقه، وفشل أيضاً كسابقيه.

١ - يريد أنهم خرجوا بكل ما يحتاجون إليه حتى لا يرجعوا إلا بعد أن يمنعوا المسلمين من دخول مكة.

لكنَّه كان يرمق بعينه ما يفعله أصحاب محمد ﷺ معه، فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قطُّ مثل محمد في أصحابه، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فإني لكم ناصح، فقالت قريش: لا تتكلم بهذا، ولكن نردُّه عامنا هذا، ويرجع من قابل.

رسل النبيِّ ﷺ:

رأى ﷺ أن يرسل سفيراً عنه إلى قريش ليصارحهم بالحقيقة فبعث:

١ ـ خراش بن أمية الخزاعي على بعير يبلغ أشرافهم ما جاء به رسول الله ﷺ فاستبدّ بهم الحمُق والغضب فعقروا بعيره وأرادوا قتله فمنعهم الأحابيش فخلو سبيله.

٢ ـ دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليكون رسولاً إلى مكة، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس لي بمكة من يمنعني من بني عدي، وعرفت قريش عداوتي لها، ولكن أدلُّك على رجل أعزُّ بها منِّي: عثمان بن عفان، فقبل ﷺ اعتذاره واستحسن عرضه.

٣ ـ دعا رسول الله ﷺ عثمان وأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش، فرآه أبان بن سعيد بن العاصي فحمله بين يديه حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. وكان عثمان قد تأخر، فشاع الخبر أنه قد قتل.

بيعة الرضوان: لما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا إلى البيعة تحت الشجرة فبايعه الأصحاب منهم من بايع على الموت، ومنهم من بايع على عدم الفرار، وعندما انتهى الحاضرون ضرب ﷺ يده على الأخرى، وقال: «وهذه لعثمان».

قال تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ الفتح: ١٨ .

التوتر داخل قريشاً: وصل خبر البيعة إلى قريش فداخلهم رعب عظيم، فأرسلوا مكرزاً مع خمسين رجلاً ليطوفوا بالمعسكر المقيم في الحديبية، فأسرهم محمد بن مسلمه وفرَّ رئيسهم، ثم حصلت مناوشة بين قريش والمسلمين فأسر منهم اثنا عشر رجلاً، وقتل رجل من المسلمين، عندها خافت قريش وسقطت كلُّ حجة كانت بيدهم حيث كان الاعتداء من جانبهم ولم يحترموا الشهر الحرام من أن يسفك فيه الدم. ورأوا أن النبي ﷺ عفا عن الأسرى تشبثاً منه بخطة سلم، قال الله تعالى: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ الفتح: ٢٤ .

فكرت قريش في الصلح لتنتهي من هذه الحالة التي قد تدور بسببها الدائرة عليها، فأرسلوا سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ، وقالوا: ائت محمداً وصالحه، وليكن في صلحه أن يرجع عنا عامه هذا، فلما رآه ﷺ قال: «لقد سهل لكم من أمركم» وتكلم سهيل فأطال الكلام مع النبي ﷺ حتى انتهيا إلى صيغة الصلح وتم الاتفاق.

وهكذا كان في الصلح مقدمة وتوطئة لفتح مكة، مبدؤها الهدنة التي جعلها الله تعالى فيها مقدمة تدل عليها بين يدي الأمور التي تعلقت إرادته بإنجازها بعدُ.

شروط الصلح:

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين، لا إسلال ولا إغلال، أي: لا سرقة ولا خيانة.

٢ ـ من أتى محمداً من قريش ردَّه عليهم، ومن أتى ممن مع محمد إلى قريش لم يردوه عليه.

٣ ـ من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، وكذلك لقريش.

٤ ـ أن يرجع النبيُّ وأصحابه من غير عمرة هذا العام، وفي قابل يدخلها ثلاثة أيام وليس معهم إلا السيف وتخرج قريش منها.

قبل النبي ﷺ هذه الشروط على ما في بعضها من إجحاف بالمسلمين ومزية لكفار مكة، حرصاً على حرمة البيت وليسود السلام، ولأنه يمتثل أمر الله تبارك وعزَّ وأنه لن يضيعه أبداً.

ثم أشهد على الكتاب رجالاً من المسلمين والمشركين.

تأثر المسلمين من هذه الشروط: لا غرو أن يدهش المسلمون ويغضبوا لموقف رسول الله ﷺ الذي أعطى المشركين ما سألوه من الشروط، وتساهل معهم في أمور لا يرون ما يسوِّغ التساهل فيها، فداخلهم أمر عظيم، وقالوا: سبحان الله كيف نردُّ إليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً؟ فقال ﷺ: «إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً».

كان من أصحاب هذا الموقف الصلب عمر بن الخطاب، فإنه أبى إلا أن يعلن عما في نفسه، فأتى أبا بكر ليستبين وجه الصواب، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟! فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه ـ طريقه ومنهجه وإياك مخالفته ـ فإني أشهد أنه رسول الله ولن يعصي ربه ولن يضيعه الله أبداً، فو الله إنه على الحقِّ، فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ولم يزل الفاروق يجد في نفسه بعض الحرج في قبول هذا الشرط، فأتى رسول الله وقال له: ألست برسول الله؟ قال: «بلى» ، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: «بلى»، أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ فقال الرسول ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره،

ولن يضيعني»[1]. فلم يكن بدٌّ إلا أن يذعن عمر وينتظر ما يتضح بمرور الأيام، وفي هذا الموقف الرائع يظهر الفرق بين الشخصيتين، أشار النبي ﷺ في كلماته أنَّ ما صنعه إنما هو وحي ولذلك أصرَّ على هذا الموقف، لكن الجموع من المسلمين لم يتضح لهم أنه وحي؛ لذلك كان ثَمَّ اعتراض. وقد تجلى الفرق واضحاً بين وحي النبوة، وتدبير الفكر البشري، بين الإلهام الإلهي الآتي من فوق دنيا الأسباب ومظاهرها، والانسياق وراء إشارة هذه الأسباب وحكمها، فالله قد نصر نبيه نصراً عزيزاً أمام بصيرة كلِّ متأمل عاقل مفكر.

لننظر هنا إلى المواقف القيادية للنخبة الذي يحيطون بالنبي ﷺ كيف يتعاملون معه تعاملاً راقياً، نعم هو قائدهم، لكنَّ النبي ﷺ جعل منهم قادة، فلهم آراؤهم فقد يرون إشكالاً فيناقشون ويعترضون ويجادلون بوضوح وقوة من أجل رأيهم ولكن في النهاية سيطيعون ويمتثلون ولا يُخالفون، فرأي عمر كان مخالفاً، ورأي أبي بكر كان مستسلماً لرأي النبي ﷺ.

١ - جاء في رواية: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري».
قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، أفأ خبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». فما هو إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها، فقال عمر: يا رسول الله، أو فتح هو.؟ قال: «نعم»، فطابت نفسه رضي الله عنه. متفق عليه.
وقال الصديق رضي الله عنه: ما كان في الإسلام فتح أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

حادي عشر ـ القائد الفعّالُ هو الذي يحيط نفسه

بهؤلاء الرجال القوّاد، ليس بمن يتابعون كالجنود فينفذون بلا تفكير ولا تأمل ولا حوار ولا نظر كما يقال في القاعدة العسكرية: نفِّذ ثم اعترض أو ناقش، فما فائدة الرأي بعد الوقوع، وكقولهم: على المرؤوس طاعة مرؤوسيه التامة دون تزمر أو تردد فبهذا يكون شلٌّ للفهم وللعبقرية التي توجد في بعض أفراد الجيش، هنا يُرى بون شاسع عظيم بين من يدير أتباعه كأنهم هَمَل لا رأي لهم، وبين من يعامل جنده كقادة ومفكرين ومدبرين، ففي رأيهم قد يكون الصواب والنجح، وقد يكون في اعتراضهم ونقدهم النصر والنكاية بالعدوِّ.

ثاني عشر ـ فعلى القائد الفعّال: أن يقبل النقد بصدر رحب،

فيسمع الحوار، ويناقش الدليل، ويعالج وجهات النظر حتى تستنير له الخطة أو الفكرة دون استبداد ولا تعنيف ولا اتهام، بل كان تعامله راقياً يأمرهم ويوجههم فيطيعونه.

تمسك النبي ﷺ بموقفه؛ لأنه كما أشار: «إني رسول اللّه، ولست أعصيه، وهو ناصري» أي: إنما أفعل ما أفعل بأمر من اللّه تعالى؛ لذلك أصرَّ ﷺ على موقفه ذلك وإن لم تزل بعض الاعتراضات من بعض الصحابة رضي اللّه عنهم، لأنهم لم يستسلموا، ولو كانوا علموا أنه وحي لما خالفوا، ثم أثبت الاتفاق وأمضاه ﷺ.

ثالث عشر ـ صبر القائد ومباشرته للأوامر:

قال النبي ﷺ للصحابة بعد كتابة العهد: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا» ثلاث مرات، فما قام منهم أحد من شدَّة ما هم فيه من الغمِّ والذهول والحزن، فدخل ﷺ على خيمة زوجه أم سلمة رضي الله عنها ـ وكانت قرعتها في هذا السفر ـ وهو متضايق متألم يقول: هلك المسلمون، فذكر لها ما وجد من الناس فقالت ـ وكانت رضي الله عنها حكيمة رزينة عاقلة حازمة ـ: يا نبي الله هل تحب أن يطيعوك؟ فقال: «نعم» قالت: أخرج ولا تكلم أحداً حتى تنحر هديك وبُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك[1].

ففعل ﷺ بما أشارت، فلما رأوا فعل النبيِّ ﷺ.. قاموا فنحروا وحلق بعضهم بعضاً وقصَّرَ آخرون، فقال ﷺ: «يرحم الله المحلقين» ثلاثاً، ثم قال: «والمقصرين» فقيل له: لما كررت الترحيم على المحلقين دون المقصرين؟ قال: «لأنهم لم يشكوا»[2].

---

١ ـ نرى هنا أن الصحابة كأنهم لم يعلموا ولم يفقهوا أنه وحي، وكان عندهم أمل أن يتغير الموقف، فلذلك لم يستسلموا ظناً منهم بأنه رأي بشري يرون فيه بعض الذلة والشدة، فإن كان الأمر كذلك فلهم حق الاعتراض، أما إذا ظهر بأنه وحي فإن الموقف يتغير والاعتراض يزول؛ لأنهم كما أخبر عنهم الله تعالى أنهم يقولون: (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) ﴿البقرة: ٢٨٥﴾.

ولو كان الأمر من غيره ﷺ لحدثت فتنة وانشقاق في الجيش ولتزعزت القيادة ولكان الخطر مستولياً ونازلاً على هذه الفئة.

٢ ـ أخرجه بألفاظ متقاربة عن ابن عمرو رضي الله عنهما البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١) وغيرهما.

وأخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (١٧٢٨)، ومسلم (١٣٠٢).

وأخرجه عن أم حصين رضي الله عنها مسلم (١٣٠٣)، وفي الباب أيضاً عن ابن عباس، ومالك بن ربيعة، وحبشي، وأبي مريم، ومارب رضي الله عنهم.

على القائد دوماً أن يعطي فرصة لمرؤوسيه، بل وفرصتين وثلاث، ويفتح المجال للنقاش والاعتراض وإبداء الرأي ويستوعب الجميع بسعة أفقه ومرونته، وهنا تتجلى هذه الصفات الفذة في شخصية النبي ﷺ.

ثم رجع المسلمون إلى المدينة وقد أمن كل فريق من الآخر، ورسول الله مغتبط بما أتم من صلح.

رابع عشر ـ ومن صفات القائد:

عندما يضرب عقداً أو عهداً يلتزم وإلا تختل الثقة به، وهنا تبرز حكمة القائد ونظرته المستقبلية، فبهذه المصداقية تحول الصلح إلى مصلحة المسلمين، وأنّ ما رأته قريش نصراً لها كان نقمة ووبالاً عليها.

نماذج من ذلك:

١ ـ قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو:

بينما كان علي يكتب الصحيفة جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيود الحديد، فقام أبوه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال سهيل: فو الله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فأبى، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟

فقال ﷺ: «اصبر واحتسب يا أبا جندل، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

٢ـ قصة أبي بصير عتبة بن أسيد الثقفي:

فرَّ أبو بصير إلى رسول الله ﷺ فأرسلت قريش في إثره رجلين يطلبانه بالعهد بينهم، وأن يُسلمه لهم فأمره النبي ﷺ بالرجوع معهما، فقال: يا رسول الله أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلصني الله منهم؟ فقال ﷺ: «إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً» ولم يجد بُداً من اتباعه، فرجع مع صاحبيه فلما وصلوا إلى ذي الحليفة نزلوا يأكلون التمر، فقال لأحدهما: أرني سيفك، فقال صاحبه: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فلما قرب إليه السيف فاجأه بأن أخذه فضرب به صاحبه فقتله، وفرّ الآخر إلى النبي ﷺ بالمدينة فوجده بالمسجد وكان دخل المسجد مذعوراً، فلما رآه ﷺ قال: «لقد رأى هذا ذعراً» فتقدم إلى النبي ﷺ وأخبر الخبر وقال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، إذ لحقه أبو بصير، فهنا قال أبو بصير للنبي ﷺ: يا رسول الله وفت ذمتك، أما أنا فنجوت وأنا حرٌّ، فقال له النبيُّ ﷺ: «اذهب حيث شئت، ولا تقم بالمدينة». وقال أيضاً: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال، أو كان معه أحد»[1]. ففطن الرجل لمقالةِ الرسول ﷺ.

١ - تفصيل القصة عند ابن عبد البر في «الاستيعاب»: (٢٨٧٥) وغيره من كتب تراجم الصحابة، وفي كتب السيرة النبوية أيضاً.

كان النبي ﷺ حيث عمل الصلح يريد فرصة هدنة وسلام وأمن لينشر الدعوة، لكنه ﷺ كان يتمنى أن لا يرتاح الكفّار، وأن يعيشوا في حروب وقلق، حتى يضعفوا ويذلوا فتتمكن الفرصة للمسلمين، فهو يخطط تخطيطات بعيدة لتقوية المسلمين وإضعاف أعدائهم، فإذا ما رأى ثغرة استغلها لمصلحة وتمكن المسلمين، وكان يبحث عن مخارج دوماً لذلك، وهنا ظهر مراده من قوله عن أبي بصير: «مسعر حرب». فكان إشعال الحرب ضدهم على يد أبي بصير ومن انضم إليه من الأعراب، وقد سار إليه أبو جندل بن سهيل والمسلمون الذين لا يستطيعون الهجرة. وصار لهم جيش. فقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطع عنهم الإمداد[1]، فأرسل رجال قريش لرسول الله ﷺ يستغيثون به وينشادونه بالله وبالرحم في إبطال هذا الشرط، ويعطونه الحقَّ في إمساك من جاءه مسلماً ولو من مكة فقبل منهم ذلك.

بذا أزاح الله عن المسلمين الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما ردّ أبا جندل، وعلموا أن رأي رسول الله ﷺ أفضل وأحسن، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم.

هذه هي النظرة المستقبلية منه ﷺ التي ظنت قريش أنه نصر لها، فإذا بها وقد تحولت الشروط القاسية عليها، فكان فيها نظر القائد القوي المحنك فعادت مصلحة للمسلمين.

---

١ - فلما اشتكوه للنبي ﷺ قال: ليس تحت حكمي وسلطاني، إنني سلمتكم إياه، وهذا رجل ثائر، ثم رفض أن يقاتلهم قتالاً نظامياً، فأثار ومن معه. ضدهم. قتال العصابات ومضت هذه المدة والنبي ينشر دعوته بأمان ودون معارض وقريش تتخبط في هذه الفترة بالآلام وبالأذى والهم وعدم الارتياح والقلق والضيق، واحتمالات الهجوم عليهم في كل لحظة وهذا شيء مريع مخيف.

خامس عشر ـ القائد الفعَّال:

هو الذي يحسب ويرتب أموره على حسابات المستقبل.

نموذج يدل على ذلك: لما دخل النبي ﷺ مكة المكرمة قلعة الكفر وقتئذ ـ رغم موافقة أبي سفيان على تسليمها واستلامها ـ وأراد دخولها فإنه قد دخل إليها من أربعة طرق وجوانب، فوزَّع جنده على قواد مبرزين فهو يحسب أموره، ويخشى الغدر ومباغتة العدوّ، وتوقعه كان في محلِّه فقد تجمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وجماعة من شباب الكفر وأرادوا مقاومة هذا الجيش المسلم الداخل عليهم، وحدث قتال في بعض النواحي فعلاً، وقتل فيه بعض الناس.

كان النبي ﷺ بالأمور خبيراً ـ ولو كان هناك اتفاقية ـ ولو أن أبا سفيان سيد مكة وقد وافق واستسلم، إلا أنه يأخذ حذره ويحسب ما يتوقعه وينفعه، والمباغتات من الأعداء متأكدة ولأجل هذا نقول: كان عنده ﷺ بعدُ نظر وحكمة.

كيفية عقوده ﷺ مع الخصوم:

كان ﷺ إذا عقد عقداً جعل له منافذ وأبواب حتى يستفيد من الاتفاقيات أكبر فائدة دون مخالفتها، ملتزماً بكلمته وعقده، ومع ذلك يرتب نفسه ويركز على هدفه، وكذا لو نظرنا في الأمور المهمة التي

منها تعامله مع جنوده لرأينا عنده فهم النفسيات وتحديد قدراتهم وكيفية التعامل مع الناس لاكتساب إمكانياتهم، وترى عنده المرونة مع أصحابه يوم أحد والحديبية وغير ذلك، والنظر في حاجاتهم، وتفقد أحوالهم.

وكل ما ذكر يعدُّ من الصفات الرئيسية للقائد وكذلك يعتبرها الغربيون، وهي أصيلة في ديننا ومنهج نبينا ﷺ.

كان ﷺ عند اتخاذ قراراته يحسب حساباً لردَّة الفعل عند الجنود، ويحاول أن لا تتجاوز الحدّ - كما يقال: إذا أردت أن تطاع فاطلب المستطاع - ويحسب كيف يختار الشخص لقيادة الجيش. كان ﷺ يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فمعرفة القائد للمواهب والإمكانيات والنفسيات والقدرات عند جيشه تأهله بأن ينتفع بها متى شاء وكيف شاء، وبخاصة يستطيع أن يحرِّكهم وقت الحاجة إلى الهدف، وهذا يتضح ويتجلى عندما تعرف الصفات المارّة عندهم، فكيف تخبر هؤلاء الناس إلا بالاحتكاك المتكرر بهم وبالتعامل الحسن وبالحوار المتواصل حتى تعرف كوَامِن كل فرد منهم وما يهتم به وما يسعده وما يغيظه أو يزعجه.

سادس عشر ـ وثوق القائد بمستشاريه:

كل هذه القواعد واضحة مع أصحابه فقد كان يستشير أبا بكر وعمر أكثر من غيرهما، وكان ﷺ يثق برأيهما وإذا اجتمعا على رأي لم يخالفهما.

وكان ﷺ يعرف أن أبا بكر يميل إلى اللِّين والحكمة، وعمر يميل إلى الشدَّة والعنف والتغيير الجاد السريع، فلو اتفقا على شيء فإنه يتابعهما.

كان ﷺ يشاور من يستحق المشاورة، قال علي رضي الله عنه: كان النبي ﷺ دائماً مع أبي بكر وعمر، حياته معهما. فلم يكونا تابعين بل قائدين مبرزين.

كان ﷺ يستخدم قواداً غيرهما للمعارك والسرايا والجيوش، فسراياهما قليلة ومحدودة جداً، بينما نرى النبيَّ ﷺ يكثر من أن يستعمل على الجيوش عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد وعبد الله بن جحش وأمثالهم، فهؤلاء أهل للقيادة العسكرية في الحرب، أما أبو بكر وعمر فهما أهل للرأي السديد والشورى ونحو ذلك.

بيان ميزات الأتباع: وأما عليٌّ رضي الله عنه فهو أهل للقضاء بالإضافة إلى قيادة الجيش، فقد تولى هذا المنصب في عهد الخلفاء الثلاثة حتى ولو كان الحكم على الخلفاء، قال عنه ﷺ: «قضية ولا أبا حسن لها»، و: «أقضاكم عليٌّ»، و: (قد بعثه ﷺ إلى اليمن قاضياً)[1].

كان ﷺ يعطي لكلِّ صاحب مزيته ويثني عليه بذلك، فمثلا قوله ﷺ: «خير رجالتنا سلمة بن الأكوع، وخير فرساننا أبو قتادة»[2].

ومن شأن القائد ألا يكون مدّاحاً بل يمدح ولا يقول إلا الحق، فأظهر ـ يا أخي المسلم ـ لأخيك فضله وصفته، والمزيةُ لا تقتضي الأفضلية، ومن ذلك قوله ﷺ أيضاً: «أمين هذه الأمة أبو عبيدة»[3].

وقال ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ حواريٌّ وحواري الزبير»[4].

وقال ﷺ: «أقرؤوهم لكتاب الله أُبيٌّ»[5].

---

١ - أخرجه عن علي مطولاً أحمد (٨٣/١) وغيرها، وأبو داود (٣٥٨٢) في الأقضية.

٢ - أخرجه عن سلمة رضي الله عنه ابن سعد (٨١/٢ ـ ٨٤) وأحمد (٥٢/٤ ـ ٥٤) ومسلم (١٨٠٧)، وأبو داود (٢٧٥٢)، وابن حبان (٧١٧٣)، والبيهقي في (الدلائل) (١٨٢/٤ ـ ١٨٦).

٣ - أخرج عن أنس رضي الله عنه الترمذي (٣٧٩٣)، وابن ماجه (١٥٤) وغيرهم: ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٤ - أخرجه عن علي رضي الله عنه الحاكم (٣٦٢/٣ و٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد (٨٩/١)، والطبراني (٢٤٣) مطولاً، والترمذي (٣٧٤٥) وقال: حسن صحيح.

٥ - سلف ويدل له خبر ابن مسعود رضي الله عنه البخاري (٤٩٩٩) وفيه: «خذوا القرآن من أربعة.... وأبي بن كعب»، وخبر أنس رضي الله عنه عند مسلم (٧٩٩): «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: آلله سمَّاني لك؟ قال: «الله سماك لي» فجعل أُبي يبكي.

ومرَّ ذكر أبي ذر رضي الله عنه، فليذكر إيجابياته، وسلبياته أحياناً، فيكون بذلك تشجيع لغيرهم، وذلك بكثرة الألقاب، وهذا كثير عند النبي ﷺ فإنه كان يعرف قدرات كلِّ فردٍ وعمق مبدأه ودينه وفهمه واتِّباعه، ونقاطَ القوَّة والضعف عنده، وهذه صفة القائد الفعّال فكلَّما استطاع معرفة قدرات أصحابه كلَّما استطاع تحريكهم نحو الهدف. حتى إنه لينظر فيهم فيحصيهم ويعلم الحاضر من المتخلف، ولو كان العدد كبيراً.

معرفة قدرات ومواهب الجند:

نموذج عن ذلك: كان ﷺ يتفقد أصحابه في غزوة تبوك، فلما وصل قال: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجل من قومي: خلّفه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا نبي الله ما نعلم إلا خيراً، قال: فبينما هم كذلك إذا رجل يزول به السراب، فقال النبي ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة... الحديث[1].

وسأل عن أبي أيوب فقيل: تخلف، وهذه كلمة فيها ضعف، فقال ﷺ: «لا تقل عنه ذلك»، أي: إني أعرفه أنه خير من ذلك؛ لأن صدق العقيدة في نفسه أعمق وأرسخ مما تظن أيها القائل. فشأنه وحاله أنه كان يمتطي ناقة فضعفت عن المسير حتى بركت، فنَزل عنها

١ - رواه عن كعب رضي الله عنه البخاري (٢٧٥٧) وأطرافه وغيره.
وأبو خيثمة: صحابي جليل أنصاري سالمي، اسمه عبد الله بن خيثمة وقيل غير ذلك، شهد أحداً، وعاش إلى زمن يزيد بن معاوية.

وأخذ متاعه على ظهره، وتبع الركب ماشياً، علم ﷺ حال صدقه مع الله ومع رسوله، فعرف ذلك الحال منه ﷺ، ولذلك قال: «يرحم الله أبا أيوب»، إنه أخذ متاعه على ظهره، أيُّ إيمان بالهدف، أيُّ إيمان بالرؤية البعيدة المدى، أيُّ إيمان بالآخرة حركت هذا الرجل، وأيُّ معرفة عميقة بالنفوس تجلت في هذه القصص مع الصِّحاب رضي الله عنهم أجمعين أكرم خلق الله من بني البشر وأنبل مَن في الدنيا على الإطلاق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، صلَّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، وجمعنا بك مع أصحابك في أعلى عليين في الفردوس الأعلى، آمين آمين يا أرحم الراحمين.

سابع عشر ـ من صفات القيادة الموهوبة:

القدرة على فهم النفوس، واستيعاب ردَّة الفعل عند الأتباع، وذلك بالحكمة والترفع عن حماس الشباب وفورانهم قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾

البقرة: ٢٦٩ .

مثال ذلك: توزيع غنائم هوازن التي كان ردَّ ﷺ نقاط الضعف يومئذ إلى مراكز انطلاق، هذه الغزوة العظيمة بعد الفتح التي هزم بها العدو من قبيلة هوازن، فكانت هزيمة نكراء، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون جميع ما كان مع العدوِّ من مال وسلاح وسبي. وسنرى فيها دروساً قيمة.

كميات الغنائم: كانت الغنائم تقدر من السبي بستة آلاف رأس، ومن السلاح ما كان عدة لهم، ومن المال أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، من الفضة أربعة آلاف أوقية، وهكذا تجمع للمسلمين كميات هائلة من المكاسب مما لم يجتمع مثلها من قبل.

وفد هوازن:

أمر رسول الله ﷺ بحبس الغنائم وجمعها في الجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري[1] ولم يقسمها حتى فرغ من غزو الطائف، وبعد عودته ﷺ من الطائف إلى الجعرانة وافاه بها وفد هوازن، وقد جاؤوا مسلمين، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك، وقام إليه خطيبهم زهير بن صُرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك.

كان ﷺ أعرف الناس بالجميل وأرحم الناس بكليم القلب، وأرفق الخلق بكسير الجناح.

---

١ - هو مسعود بن عمرو الثقفي صحابي جليل، ترجم له المصنفون في الصحابة، وهو في «الاستيعاب» (٢٣٨٧) و(٢٣٨٨) وقيل في اسمه: مسعود بن عامر بن ربيعة بن عمرو بن سعد بن عبد العُزى بن محلّم، القاري.

فقال لهم ﷺ: «نساؤكم وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟ وقد كنت استأنيت بكم» أي: أخرت قسمة السبي عسى أن يحضروا ويأتوا مسلمين فيشفع لهم إسلامهم، فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل نساؤنا وأبناؤنا أحب إلينا، فقال ﷺ: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس، فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم».

ومن المعلوم أنه لا يجوز للإمام أن يسترد شيئاً من الغنائم إذا قسمت على أصحابها، وكذا قبل أن يقسمها؛ لأنهم يستحقونها إلا بطيب نفس من صاحبها، دون أن يتأثر صاحب الحقِّ بأي تأثير أو إكراه.

ولما في هذا الأمر من دقة قام بهذا الاستئذان لتطيب نفوس أصحابه بإرجاعه السبي وبالتنازل عن حقوقهم وممتلكاتهم، وهذا ما أثبته الشارع في شأن الحقوق حتى ولو كان الطالب له رسولاً.

ردّ السبي لهوازن:

فلمّا صلّى رسول الله بالناس قاموا فقالوا مثل ما قال لهم، فقام النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن

إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين، وإني رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحبَّ أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكون على حظِّه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله به علينا فليفعل... ثم قال: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقال الأنصار مثل ذلك، وتمنَّع أناس منهم الأقرع وعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس وما زال بهم رسول الله ﷺ حتى أرضاهم، وبذلك بفضله ﷺ ورحمته ردّ سبي هوازن.

قصة الشيماء: وهي أخته ﷺ من الرضاع كان عنّف عليها بعض المسلمين، فقالت: والله إني لأخت صاحبكم فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ فتعرف عليها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وقال لها: «إن أحببت البقاء عندي فإنك محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟» قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فأعطاها ومتعها وردها إلى قومها سالمة بما يسرها ويسعدها.

قسمة الغنائم: لما ردَّ ﷺ السبايا خشي البعض من أن يرد إليهم الأموال، فالَحُّوا عليه في قسمتها حتى ألجؤه إلى شجرة فخُطِف رداؤه، فقال: «ردُّوا عليَّ ردائي، أيها الناس، فو الذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته فيكم،

ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»[1]. ثم أخذ وبرة من بعير ورفعها، فقال: «أيها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخِياط والمخيط ـ الخيط والإبرة ـ فإن الغلول عار وشنار على أهله يوم القيامة»، فجعل من أخذ شيئاً من الغنيمة يرده ولو كان زهيداً.

ثم خمّس الغنيمة فأخذ خمس نفسه.

سياسته ﷺ نحو المؤلفة قلوبهم:

١ ـ رأى ﷺ أن يختصَّ من أسلم من أهل مكة بمزيد من الغنائم ولم يراع في هذا العطاء المساواة بين المقاتلين تألفاً واستمالةً لقلوبهم على الإسلام، بل لما كان يعلم أن بعض النفوس هي عبيد للإحسان، وهذا ضرب من أنواع السياسة الشرعية الحكيمة ـ ليشرب قلوبهم حبَّ الإيمان وكذا أعطى آخرين ليحببهم في الإسلام ـ فأعطى الأعطيات الكبيرة كمئة من الإبل مثلاً لأفراد منهم أبو سفيان، والحارث بن هشام، ولحكيم بن حزام وطلب الاستزادة فأعطاه مئة أخرى، وكذا أعطى عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وسهيل بن عمرو، والحارث بن كلدة، ثم أعطى دونهم العباس بن مرداس سبعين بعيراً فأنشأ يقول:

١ - رواه عن جبير بن مطعم رضي الله عنه البخاري (٣١٤٨) بألفاظ متقاربة.

أتجعل نهبي ونهب العبـ ـيد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع[1]

فوصل الخبر إلى النبي ﷺ فقال لهم: ادعوه لي، فلما جاءه أتمَّها له مئة بعير.

وقال ﷺ: «اقطعوا لسانه».

وزع ﷺ ما يخصُّ نفسه من الأموال بين أولئك الأعراب الذين كانوا من حوله.

٢ ـ مثال آخر: فأعطى ﷺ أحدهم حيث جاء طالباً لمال، فقال له: «هل رأيت ما بين هذه الجبلين في هذا الوادي ـ وكان ممتلئاً غنماً ـ هو لك»، فقال الأعرابي: أتهزأ بي، وتضحك عليَّ؟ فقال: «أقول لك، هو لك، فخذه». فذهب الرجل يسوق تلك الشياه وهو يخشى أن يمنعه أحد منها، وأخذ يتلفت خائفاً كأنه يسرق مال غيره، فلم يتعرض له إنسان حتى وصل إلى قومه، فقال لهم: أسلموا يا قوم، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر[2].

أي أنه يعطي العطاء الجزيل كأنه يغرف من بحر لا ينفد، وكأنه على ثقة بأن أمواله لا تنتهي فيعود فقيراً.

١ - الأبيات أوردها مسلم (١٠٦٠) في استعتاب العباس بن مرداس من بحر المتقارب.
٢ - رواه عن أنس رضي الله عنه مسلم (٢٣١٢) بألفاظ متقاربة.

٣ ـ كان ﷺ يعرف أن مثل هؤلاء تحرِّكهم الأموال، فشرى إيمانهم بعَرَض من الدنيا، وبذا يكون قد أنقذهم من الكفر والنار، وأوصلهم إلى حظيرة الإيمان باللّٰه وسعادة الدنيا والآخرة.

فكان تحريكه ﷺ لكلِّ شخص على حسب ما يؤثر به وينقاد له، فإعطاؤه كان كما تقتضيه المصلحة.

من أقوال الغربيين:

أما قول أحد كبار المناظرين الغربيين ماثلو في الإدارة: إن هناك هرماً للحاجات الإنسانية ـ فهذا صحيح ـ لكنه أخطأ بقوله: إن الحاجة المادية هي في أسفل الحاجات، ثم الحاجة المعنوية، ومن ثمَّ يأتي التقدير والأمن... على حسب ترتيب معين وهكذا، فالقول الحق والفصل وهو الصواب: أنَّ كلَّ إنسان له حاجة تختلف عن الآخر.

ثامن عشر

فالقائد الفعّال هو الذي يعرف ما تصبو إليه نفس كلِّ فرد حوله، فيعطيه ما يسبب إسعاده، فمثلاً أحدهم يحرِّكه المال، وآخر المدح، وآخر المنصب وهكذا.

توزيع أُعطياته ﷺ يختلف على حسب اختلاف الناس، ومعاملته مع الجميع تنحصر بما لا يضرُّ بمنهج الدعوة ومصالحها وهدفها.

فضل الأنصار ومكانتهم عند رسول الله ﷺ:

تطورت مسألة توزيع الغنائم في حُنين حتى آل الأمر إلى خطر شديد، ألا وهو الاعتراض على سياسة النبي ﷺ في إعطائه بعض رجال قريش وغيرهم المئة والمئتين من الإبل، وكان قسمه ﷺ للمجاهدين: للراجل أربعة من الإبل وأربعون من الغنم، وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك - وقالوا: أما من قاتله وتظاهر بالإسلام، فيعطيه، وأما من لم يقاتله ولم يعانده وناصره فلا يعطيه.

فلمّا بلغه ﷺ الخبر - وهذا يدلّ على تتبعه الدائم، وأنه مع رعيته وجنده، يعرف آلامهم وآمالهم، وأن القائد ليس في عزلة أو أنه منقطع مبتعد عن القاعدة، بل هو في كلِّ حال معهم، وأخبارهم دوماً متصلة - قال للأنصار بعد اجتماعهم: «ما حديث أتاني أريد التأكد منه»، فالحكمة هنا التثبت أولاً - من قولهم - بحسن الاستماع.

وساق الخبر ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعْت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً

في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، فقال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة» فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، ثم جاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له.. أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا معشر الأنصار، ماقالة بلغتني عنكم، وجِدَةٍ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألَّف بين قلوبكم؟».

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضلُ.

ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ.

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك ـ ذكر فضله عليهم ليقروا بذلك، ثم ذكر فضلهم عليه، مواساة لهم. أي حكمة هذه ـ أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاعة ـ شيء يسير ـ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار،

ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً.. لسلكت شعب الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار[1].

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا .

من فوائد استعطاف القائد:

هل رؤي أو سمع في باب الاستعطاف والاسترضاء أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق والصراحة، والرقة والشفافية، والبيان والذوق الرفيع، أو هل اطلع على ألطف من هذه الإحساسات، أو هل سُمع مثلها في تهدئة النفوس الطامحة العاتية الثائرة بمثل هذه الكلمات الرقيقة، التي لامست خفقات مشاعر الأنصار فهزتها هزاً، ثم نفضت منها ما كان قد علق بها من الوساوس والهواجس، فكانت النتيجة الباهرة بارتفاع أصواتهم بالبكاء فرحاً وابتهاجاً بنبيهم ﷺ، وما أكرمهم الله تعالى به. فما المال وما الدنيا بأسرها في جنب حبيبهم رسول الله ﷺ، إذ يعودون به إلى ديارهم؛ ليكون المحيا محياهم والممات مماتهم، وأي وفاء وبرهان ينطق بخالص المحبة والود أكثر من هذا، أي شيء أكبر من أن يدع الإنسان وطنه ومسقط رأسه ليقضي بقية أيامه مع من يحب، فهذا هو التقدير والحب الصادق.

---

١ - رواه البخاري في المغازي، ومسلم في الزكاة، وابن هشام في «السيرة» (٢/٤٩٩ - ٥٠٠).

تاسع عشر

القائد الفعّال هو الذي يتعامل بالعاطفة الجياشة، وبما يحرِّك النفوس، وبما يهيِّج لتألُّف القلوب، وتوجيه العقول أيضاً، فبهذا يتحوَّل الضعف قوة، وتتحول ردود الأفعال إلى مراكز انطلاق.

هذا هو المنهج الأصيل حيث عرف النفوس وما تنطوي عليه فعاملها بما ترتاح له، فقد يدمج الصبر مع الحلم، فلا تجده يغضب ولا يستثار. وتراه عندئذ قائداً يحرك نفوس المعارضين بله الموافقين والمؤيدين والمحبين.

ليس من الحكمة في القائد أن ينظر فقط في الإنجازات والمتطلبات والتقنيات العملية.

مثال آخر: في معرفته الصفات الجليلة وتعامله بالمعاني العظيمة، وكيفية تعامله مع النفوس والعواطف وانقيادها له، وأنه يستولي عليها بخُلقه الحسن، كما قال الله تعالى في حقِّه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أعطني من مال الله الذي أعطاك، فأعطاه النبي ﷺ بكلِّ لطف وهدوء، ثم قال له: «هل رضيت؟» قال الأعرابي: لا والله ما أجملت ولا أنصفت، فقام أحد الصحابة رضي الله عنهم وأراد قتله، فقال ﷺ: «دعوه، تعال معي» فأخذه النبي ﷺ إلى بيته فأعطاه، ثم قال له: «رضيت»

قال: لا، ثم زاده من العطاء، ثم قال له: «رضيت» فقال: لا، ثم جعل يعطيه ويعطيه، فقال: كفى رضيت، جزاك الله عنا خيراً، وبدأ يمدح النبيَّ ﷺ، فقال النبي ﷺ يا أيُّها الرجل إنَّ في نفوس أصحابي منك شيئاً، فقم وكلِّمهم، فقام النبيُّ ﷺ فقال: «إن هذا الرجل أعطيناه فلم يرض، فأخذته فأعطيته حتى زعم أنه رضي، فطلبت منه أن يقول لكم ذلك، فقام الأعرابي فقال: جزاك الله عنا من أهل ومعشر خيراً، وأخذ يمدح النبيَّ ﷺ مدحاً كثيراً، فقال ﷺ لما انصرف: «إن مثل هذا كمثل رجل شرد له بعير، فلحقه الناس، فازداد نفوراً، فقال الرجل: دعوني وبعيري فتركوه فأخذ شيئاً من نبات الأرض وتقدم به نحوه فأخذ الجمل يقترب منه حتى أمسك به، وهذا الرجل لو تركته لكم قتلتموه، ولو قتل لكان من أهل النار لكلمته التي قالها، لكن ـ والحمد لله ـ بعودته صار من أهل الجنة»[1].

في هذا الموقف البسيط معنى عميق من القيادة، فالقائد عطوف رحيم حليم، يقدِّر نفوس المخاطبين، ويصبر عليهم ويتحملهم، ويتعامل معهم كجزء أساسي من فريق العمل، لا يستطيع أن يهمله أو يتخلى عنه، وإلا تزعزع تماسك الصف، وتضعضع وانهار قبل بلوغ النتيجة، فمن مقومات النجاح إذاً في أي عمل أن تتحد الكلمة ويتراصَّ الصفُّ ويجتمع.

١ - روى عن أنس رضي الله عنه أحمد (١٥٢/٣)، والبخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧) قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء.
وهذا يدل على خلقه العظيم ﷺ، وأنه رؤوف رحيم، فقد صبر على جفاء الأعرابي وحلم عليه مع قدرته على النيل منه، ولم يجازه إلا بأن ضحك له ﷺ.

اعتراضات المنافقين:

لما قسم ﷺ غنائم حنين وأعطى المؤلفة جاء رجل من المنافقين، يقال له: ذو الخويصرة من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال ﷺ: «ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إذا لم أعدل» فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي أن أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «معاذَ الله أن يَتحدث الناس أني أقتل أصحابي، دعه فإنّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»[1]. أي: ينطلق مسرعاً.

فهنا ردَّ ﷺ عليه ردّاً شديداً ولم يعطه شيئاً، فهذا موقف يختلف عما قبله، وفيه أيضاً: أن هذا الرجل ليس متمكناً في الدين والإيمان، بل كان منحرفاً ضالاً، وآل الأمر به أخيراً بأن صار أحد زعماء الخوارج - الفرقة المنحرفة - الذين قاتلوا علياً رضي الله عنه وكرم وجهه، فقد عرف ﷺ ما جبلت عليه نفسه من سوء الطبع وفساد الطوية، فعامله كما يستحق أن يعامل، فقد عامل ﷺ الرجل في القصة قبلُ بلينٍ وعطف وإحسان، أما هنا فقد أخذ بجانب آخر فيه الشدَّة والحزم والقوة.

---

١ - أخرجه عن جابر رضي الله عنهما أحمد (٣/٣٥٣ - ٣٥٤)، والبخاري (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣)، وابن ماجه (١٧٢)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٩٤٣).
وأخرج عن أبي سعيد أحمد (٣/٤ و٦٥)، والبخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٧١٤)، والنسائي (٥/٨٧ - ٨٨) وابن أبي عاصم في (السنة) (٩٢٣) و(٩٢٤) بلفظ: «يخرج من ضضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم» الضضئ: الأصل. لا يجاوز حناجرهم: أي لا يعملون به ولا يفهمون معناه.

مثال آخر: قال معتب بن قشير ـ المنافق ـ ما أريد بهذه القسمة وجه الله فلما أخبر بذلك رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1]. ولم يكن رسول الله يفعل هذا لهوى في نفسه فحاشاه من ذلك، وإنما الأمر كما قال: «إني لأعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأَكِلُ قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى»[2].

خلاصة القول: نرى في النماذج السالفة منه [ليناً ورفقاً وعطفاً وصبراً وحلماً مع رجال، ونرى منه في جانب آخر شدّة وحزماً وعنفاً خاصة أمام رجل مارق لا يعد من ذوي الإيمان الراسخ، بل هو خارج عن جادة المنهج القويم.

معاملة النبي ﷺ لأعدائه:

١ ـ نجد تعامل النبي ﷺ مع أعدائه على اختلاف ضروبهم وإن كانت لهم عداوة، فإنه يحسن ولا يظلم أبداً، فقريش قاتلته ببدر وأحد والخندق... فلما انتصر يوم الفتح قال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ولما قال بعض الصحابة: اليوم يوم الملحمة، قال ﷺ: «اليوم يوم المرحمة» فلم يكن منه عقاب ولا قتل ولا إيذاء

١ - أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه أحمد (٤١١/١)، والبخاري (٦٣٣٦)، ومسلم (١٠٦٢)، وابن حبان (٢٩١٧).
٢ - وروى عن سعد رضي الله عنه أحمد (١٨٢/١)، والبخاري (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠) نحوه: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، مخافة أن يكبه الله في النار».

ولا مصادرة أموال ولا معاملة بالمثل، بل تجلى في شخصه الصفح والكرم والمثل العليا الرائقة الفائقة.

٢ ـ ونجده كيف عامل بني قريظة حينما غدروا وخانوا في أهلكِ وأحلك المواقف، وذلك يوم الأحزاب حيث حاصر المشركون واليهود المدينة من شمالها، وكانوا هم يقطنون في جنوبها، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وحلف على أن ينصروه إذا أصابته حرب، فجاء حُييٌّ كبير مجرمي بني النضير إلى كعب بن أسد القرظي، فلم يزل يكلمه حتى دخل عليه وقال: جئتك بعز الدهر... فقال كعب: جئتني واللّه بذلِّ الدهر، إلى أن قال: ويحك يا حيي دعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء، فلم يزل حييٌّ بكعب يفتله حتى أنه سمح له ـ أي: أنه إذا رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ـ أن يدخله معه في حصنه حتى يصيبه ما أصابه، فنقض كعب عهده مع النبي ﷺ وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين.

وانتهى الخبر إلى رسول اللّه ﷺ فبادر إلى استجلاء موقف بني قريظة فبعث ـ ليتحقق الخبر ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد اللّه بن رواحة وخوَّات بن جبير، فلما دنو منهم وجدوهم على أخبث ما كانوا، وجاهروا بالسبِّ والعداوة ونالوا من رسول اللّه ﷺ وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فانصرفوا عنهم وأخبروا رسول

الله ﷺ من غير تصريح، فقالوا: عضل وقارة أي: أنهم على غدر أولئك بأصحاب الرجيع، فلمّا أجلى الله الأحزاب قال ﷺ: «الآن نغزوهم، لا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة عند الظهر جاءه جبريل عليه السلام فقال: أوَ قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع السلاح، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب. فأمر ﷺ مؤذناً في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا ببني قريظة».

هنا تظهر حنكة القائد على التحرك السريع، فلا يحتاج إلى طويل تخطيط ـ بخلاف الأمور التي يقال عنها تحتاج إلى دراسة بل هنا تحتاج إلى تصرف حازم، فكان ﷺ يعرف متى يتئد ومن يسرع، فالخيانة لا يتعامل معها إلا بجد وحزم، فالقائد هو صاحب الحكمة الذي يضع الشيء في موضعه المناسب، في الموقف المناسب فموقف الشدة، فوري يحتاج للشدة وموقف اللِّين يحتاج إلى اللِّين.

وخرج رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار أرسالاً حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ وهم ثلاثة آلاف، فنازلوا بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار، وكانت حرب أعصاب، وقذف الله في قلوبهم الرعب،

وانهارت معنوياتهم، وبعدئذ بادروا إلى النُزول على حكم رسول الله ﷺ، فاعتقلت رجالهم ووضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري، وجعلت الذراري والنساء بمعزل عن الرجال، فقام الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا فأحسن فيهم، فقال: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ قالوا: قد رضينا، فأرسل إليه ﷺ، فجاء وهو جريح على حمار، فقال له الأوس: إن رسول الله ﷺ قد حكمك لتحسن فيهم وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئاً، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.... فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال، فقال ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». وبهذا التحكيم لسعد رضي الله عنه لم يبق ﷺ اعتراضاً للأوس.

عقاب الخونة:

فأمر ﷺ بحفر خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً وتضرب أعناقهم، وكانوا نحواً من السبع مئة، وقتل معهم شيطان بني النضير حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

هذا هو الموقف الصحيح مع اليهود الذين عُرف في تاريخهم الخيانة والمكر والخداع وعدم حفظ الكلمة والعداء للإسلام والمسلمين،

وكراهية كلِّ البشر إلا أنفسهم. والنبيُّ ﷺ لم يحكم عليهم من تاريخهم، وإنما حكم عليهم لنقضهم العهد، ومن واقعِهم حيث خانوه ﷺ، وهذا الواقع يتكرر منهم في كل زمان، والناس لا يعتبرون.

العشرون

فالقائد الحكيم هو الذي لا يستسلم ولا يتنازل ولا يتراجع ولا يلتمس من عدوه السلام في وقت يحتاج الأمر فيه إلى عزَّة ونخوة ومحافظة على المقدسات والشرف والأعراض وكرامة الإسلام، ويتطلب المحافظة على هيبة ومكانة وأموال المسلمين.

وبالمقابل فلا يصح بشكل ما أن نجعل الشدة على بعضنا، أوعلى رفقائنا في الدرب، وليست هذه بحكمة مهما كانت الخلافات قطعاً.

فالتوازن: صفة أساسية من صفات القيادة السليمة، ومن صفاتها المطلوبة المرغوبة أيضاً.

إن القائد يستطيع زرع المحبة في نفوس أصحابه، المحبة التي تملأ القلب أُلفة وتعظيماً واحتراماً وإجلالاً وهيبة من غير خوف ولا خشية ولا رهبة ولا وجل، فمن أمثلة محبة الصحابة للنبي ﷺ:

١ ـ **قصة خبيب بن عدي رضي الله عنه البدري**: الذي أُسر رضي الله عنه يوم الرجيع، فاشتراه بمكة بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه، وكان قتل أبوهم يوم بدر انتقاماً له، فأخذوه ثم صلبوه على جذع، وأخذوا

يطعنونه بالرماح والسيوف، وكان لا يزال حياً، وفي هذه الحالة الحرجة سألوه أتحبُّ أن يكون محمد مكانك، وأنت مكانه؟ فقال: ما أحبُّ أن محمداً في المكان الذي هو فيه أن يشاك بشوكة وأنا في مكاني، أي حبٍّ وعاطفة وتضحية وفداء هذا، هذا هو الحب الذي امتلأ به فؤاد خبيب، يقول من شهد ذلك من أهل مكة: واللّه ما رأينا أحداً يحب أحداً كحبِّ أصحاب محمد محمداً ﷺ.

٢ ـ مشهد آخر مع أبي سفيان ليلة الفتح: جاء أبو سفيان يتحسس أخبار جيش النبي ﷺ فقدم مع العباس إلى النبي ﷺ فأبقاه ﷺ عنده، فلما جاء وقت الصلاة، فأخذ النبي يتوضأ والصحابة بقربه، فكلما تساقط الماء من أطرافه تسارع الصحابة لتناوله، فقال أبو سفيان للعباس: يا عباس، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، أي: أني ما رأيت عند الملوك ما أجده ها هنا، فقال: يا أبا سفيان إنه ليس الملك، إنها النبوة.

لقد ارتفعت المحبة في نفوس الصحابة رضي اللّه عنهم، فالكلُّ يتسابق ويتنافس في خدمته والتقرب لديه، وكذا الكلُّ يتطلع إليه يريد متابعته في كل حال وحركة ليتأسوا به، والمقابل لهذه الصفة: أن يتملك بالقهر والغلبة والبطش والقتل، فيُطيعه الناس خوفاً لا حبّاً، وفي الأزمات يتركه أصحابه.

فالقائد الذي يقود بالمحبة يتقاتل أتباعه في سبيل حمايته وإعانته وخدمته وبخاصة وقت الأزمات، فلو رأوا ما رأوا من المغريات لا يدعونه ولا يبتعدون عنه.

٣ ـ نموذج ثالث: وهو أنه ﷺ يوم أحد سقط في حفرة وكان قد شج رأسه وكسرت رباعيته إلخ، فرأى ذلك أبو دجانة سماك بن حرب رضي الله عنه، فاكب على النبي ﷺ وكان قد لبس لأمة الحرب وأكثر من الحديد، فأكثر المشركون القذف والرمي على هذه الحفرة بالحجارة والسهام، حتى إن ظهر أبي دجانة صار كالقنفذ من كثرة السهام.

وكذا وقف دونه أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهل رضي الله عنه، قال عنه ابن زوجته أنس رضي الله عنه: كان أبو طلحة يجثو بين يدي رسول الله ﷺ في الحرب ويقول:

نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء

وقال: (كان رسول الله ﷺ يرفع رأسه من خلف أبي طلحة ليرى مواقع النبل)، قال: و: كان أبو طلحة يتطاول بصدره يقي به رسول الله ﷺ ويقول: نحري دون نحرك.

هذه هي المحبة النقية الخالصة التي تنبع من أسلوب التعامل، فالقائد الفعّال هو الذي يعرف كيف يتعامل مع أصحابه، يعرف كيف يعدل ويكون رفيقاً ليناً حليماً متابعاً راعياً لشؤونهم، مخلصاً لهم وتجد هذا متجلياً في مواقف النبي ﷺ كلها.

٤ ـ شكل رابع: كان النبي ﷺ جالساً فجاءه نسوة يستفتونه، فكثرت الأسئلة وارتفعت أصواتهن وصرن يقاطعنه في الكلام وهو يجيبهن صابراً عليهن، فدخل عليه عمر فسكتن، فضحك النبي ﷺ، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، ما الذي يضحكك؟ فقال: إن هؤلاء النسوة كن يسألن ويتسابقن في الكلام ويرفعن أصواتهن، فلما دخلت سكتن، فقال عمر رضي الله عنه لهن: يا عدوات أنفسهن تهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ، فقالت إحداهن: إنك فظ غليظ، يعني: إنك خشن، أما النبي ﷺ فهو رحيم رفيق بنا، فقال ﷺ: «لا تقولي هكذا، فو الله لو سلك عمر فجاً لسلك الشيطان فجاً غير فجه».

كان عمر شديداً على الانحراف والاعوجاج والخطأ، فلذا يخافه الشيطان وأصحاب العصيان.

خلاصة القول: إن النبي ﷺ كان رفيقاً يتحمّل الحوار وكثرة السؤال ويسمع للمناقشة، وهذا من التعامل الشعبي المنفتح مع الناس فيحبه الناس، إن الشعوب تحب من يتعامل معها برفق ولين وبغير تكلف وبتواضع، ولا تحب عكسه، وهو الذي يتعامل بالإرهاب والقهر.

ومن صفات القائد الفعّال:

العدل، وضبط النفس:

كان عمر رضي الله عنه في أيام خلافته مرة يسير معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبينما هما يمشيان وبعض الصحابة خلفهما التفت إليهم عمر فارتبكوا واختلف حالهم، فقال: ما لكم؟ فقال أحدهم: قد ملأت قلوبنا رهبة، فقال عمر: أذلك عن جور مني؟ قالوا: لا، أي: أنك شديد بالعدل ولست ظالماً. قال: زادني الله رهبة في قلوبكم.

كان عمر رضي الله عنه نموذجاً خاصًّاً يتعامل بالشدَّة مع العدل، جازماً لا يقبل الخطأ، بخلاف أسلوبه ﷺ فإنه كان يتعامل باللِّين والرفق والعدل، وأما أسلوب الصديق فكان أقرب لمنهج النبي ﷺ لذا يقال: ليس للقيادة معيار واحد.

وممّا ذكر نخلص لما يلي:

لا يمكن أن يكون القادة على شاكلة واحدة، كما لا يطلب من القائد تغيير شخصيته بل المطلوب منه أن يتبنى أنواعاً من القيم والمبادئ والصفات، التي تجعله مؤثراً وعادلاً ومحرِّكاً للناس نحو الهدف الصواب.

١ ـ مثال للعدل: التقى عمر رضي الله عنه يوماً في الطريق مع قاتل أخيه زيد بن الخطاب[1] رضي الله عنه في معركة اليمامة ـ ثم إن قاتله أبو مريم الحنفي أسلم[2]، وجاء إلى المدينة ـ فلما رآه عمر.. قال له: اغرب عن وجهي، فقال أبو مريم: يا أمير المؤمنين أيمنعني ذلك حقاً من حقوقي؟ فقال عمر: لا ـ ففي هذا أنصاف ومصارحة ومكاشفة وتماسك ووضوح وعدل ـ فقال: إنما يبكي على الحبِّ النساء.

هكذا فليكن الوضوح والصراحة والعدل في كل مجال، فالقائد والمسؤول الذي يظلم بسبب عاطفته غير منهجي ـ فإذا أحب مثلاً رفع إلى السماء، وإذا أبغض ترك للإنسان كل فضيلة وحسنة ـ ولا يمكن أن يقود بفعّالية؛ لأنه بهذا الاعتبار تختل موازينه، وتتحول النفوس إلى البغض والقطيعة.

---

١ – قال عمر لما نعي إليه زيد: رحم الله أخي، سبقني إلى الحسنين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي.
وقال عمر لما سمع مرثية متمم بن نويرة في أخيه: لو كنت أحسن الشعر لقلت في أخي مثل ما قلت في أخيك، فقال متمم: لو أن أخي ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت، فقال عمر: ما عزّاني أحد بأحسن مما عزيتني به.
٢ – قال أبو مريم لعمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن الله أكرم زيداً بيدي ولم يهني بيده.

٢ ـ مثال آخر: رأى رسول الله ﷺ سَوَاد رضي الله عنه في جنود المسلمين متقدماً فطعنه ﷺ بجريدة أو بمخصرةٍ في بطنه، فخدشه، فقال: أقِصَّني، فكشف له النبيُّ ﷺ عن بطنه، فوثب فقبَّل بطن النبي ﷺ. فقال له ﷺ: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأحببت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمسَّ جسدي جسدك.

أي: قائد أو ذو مكانة مرموقة يسمح لرجل عادي أن يقتصَّ منه؟ هذا الموقف السامي النبيل يدلُّ على العدل والاطمئنان، والحبِّ والإنصاف والإخاء والصدق، فيتولَّد من هذا الثقة المنشودة والتفاني بالقائد.

الثاني والعشرون

ومن صفات القائد الفعال الثقة:

نموذج فريد فيه المعاني الجليلة: حدث بين عمر رضي الله عنه وأبي بكر الصديق ـ بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه ـ خلاف على توجيه جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما الذي كان قد أعدَّه وجَهَّزه رسول الله ﷺ لقتال كفّار الروم، فلموته ﷺ انشغل الجيش وغيره بهذا الخطب العظيم، والمصيبة كبرى ولم يهدأ الروع والفزع حتى ووري ﷺ في مرقده الأخير.

انتظر الجيش الأوامر ليتحرك إلى قتال الكفّار ـ وارتدَّ الناس ـ فأمرهم أبو بكر رضي الله عنه بإنفاذ جيش أسامة تنفيذاً لوصية النبي ﷺ فوقف الناس ضدَّ هذا المسير خشية من هجمات على أهل المدينة أو من إصرار المرتدين المعاندين فأصرَّ أبو بكر رضي الله عنه على إرسال الجيش وقال: ما كنت لأَحُلَّ لواء عقده النبي ﷺ، فحاوره الصحابة فقال: لو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ما أوقفت هذا الجيش ـ أي: رأي أحكم، إكمال المهمة التي بدأت، أم الاستعداد لمهمة جديدة طرأت؟ ـ وكان الموقف حازم جداً لإتمام المهمة.

هذا موقف عمر الذي قال لأبي بكر: بمن تقاتلهم يا خليفة رسول الله؟ فقال: أقاتلهم ولو بقيت وحدي حتى تنفرد سالفتي. وكذا قال رضي الله عنه أيضاً: (والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة، والله لو منعوني عناقاً ـ عقالاً ـ مما أعطوا رسول الله ﷺ لقاتلهم عليه)[1].
ثم أجمعت الصحابة بعد ذلك معه فاستقر الحكم والوجوب.

رفض أبو بكر رضي الله عنه أن يستمع إلى قول الذين رأوا أن لا يخرج الجيش في هذا الوقت العصيب، وأبى أن يكون قائدُ الجيش إلا أسامة رضي الله عنه[2].

قال عمر: لما رأيت أن أبا بكر قد انشرح صدره لهذا الأمر.. علمت وعرفت أنّه الحقُّ، هذه هي الثقة العظيمة والمعرفة الصادقة العميقة التي تنبع من تمام المحبة، فلما تحرك الجيش حدث أمر خطير عند المرتدين الذين أرادوا الهجوم على المدينة، فقالوا: ما تحرك الجيش إلا وعندهم جيوش، فرهبوا وخافوا وترددوا في الهجوم المبيَّت فحقّق الله الهدفين المرادين في رأي الشيخين أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما.
فهذه حكمة عظيمة أكرم الله بها أبا بكر رضي الله عنه.

---

١ - روى خبر أبي بكر رضي الله عنه البخاري (١٣٩٩) و(١٤٠٠)، ومسلم (٢٠)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٢٤٤٣)، وابن ماجه (٣٩٢٧).

٢ - خرج الصديق مع الجيش يودعه وهو ماش وأسامة راكب، فقال: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلنَّ، فقال: لا نزلت ولا أركبُ، وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.
ثم قال أبو بكر لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل؟ فأذن له، فلما رأى ذلك المتألمون من إمرة أسامة.. سكتوا وطابت نفوسهم.
سار أسامة حتى وصل البلقاء وحدود الشام، فأغار على الروم وانتقم للمسلمين وأبيه الذي قتل في مؤته، ثم عاد إلى المدينة مظفراً منصوراً بعد أن أرضى ربه، وأرضى نبيه، وأرضى خليفة رسوله.

وكذا نجد في أعمالنا أن بعض الناس لهم فهم للحياة وحكمة بارعة، ويحصل هذا بخبرتهم وبتجاربهم مرات، فيصدَّق قولهم، فلابدَّ بعدئذ إذا رأى شيئاً أن يقال: هو صاحب القول الحق والصواب لوجود وتكرار الأمر والحكم الأفضل منه.

الثقة تتولد دوماً من صلاح الإنسان ومعرفته معرفة عميقة ومن نيته المخلصة وتعامله العادل، فحيث تجد منه إصراراً على أمر، فإنك لا تتردد فيه وتشعر أنه أحقُّ منك بالرأي.

كيف تنشأ صفات وأدوار القائد:

من العلماء من يقول: إنها علم، ومنهم من يقول: إنها فنّ.

فمن قال: إنها علم فإنه يحفظ قواعدها ويتابع خطواتها حتى يصبح قائداً بالتعلم والعلم من غير ممارسة، وهذا لا يوافق عليه، كمن ذكر سابقاً ممن تعلم علم التجارة من غير مزاولة لها.

وبالحقيقة فإن العلم النظري غير الواقع العملي، ففن القيادة لا يكفي فيه العلم النظري البتة، ومع ذلك فلا بدّ أن تتوفر في القائد مجموعة من الصفات وإن اختلفوا في عدِّها على رأي أكثر العلماء، ويختلف أيضاً حسب الواقع والموقف والظرف، وإن من هذه الصفات البارزة:

الثالث والعشرون

حسن توجيهه للناس: فيعلم كيف ومتى يحرِّك الناس نحو الهدف، يحسن إصدار القرارات الصحيحة للتوجيه الصحيح، ويحتاج كذلك إلى:

الرابع والعشرون

قدرة عقلية: إن من أهم أمورها التمييز بين المصالح والمفاسد، ويحرِّك في فكره وخلده الاحتمالات، يقول: لو فعلنا كذا كان كذا، ويحلل بنفسه ردة الفعل التي تتوقع، فإن جرى كذا فعلينا أن نفعل كذا، ويجب في هذا المضمار أن يكون له بصيرة على تبسيط الأمور ودراسة الاتجاهات ووضع التصرفات المناسبة لكل احتمال، والقدرة على النظر في الإيجابيات والسلبيات في كلِّ مسألة عويصة أو موقف قلما يستطيع التصدي حياله بجدارة إلا القليل من الناس، فكثير من الناس عند الوقائع يتصرف بتسرع فيرى أنه تصرَّف بخطأ[1]، ومن تكثر أخطاؤه لا يتحمله الناس وخصوصاً إذا كان ضرره واضحاً[2]، أو يؤدي إلى هلاك إلا من كان تسلط على حكمه بالحديد والنار والقهر والغلبة، فيستسلم له الناس؛ لأنه ليس لهم حول ولا قوة، وعندها لا خيار لهم.

---

١ - لأنه لم يتبادر إلى ذهنه غير موقف واحد، ثم يكتشف خطأه بعد قليل. قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

٢ - كمن وضع رجل رئيساً لجمعية أو جماعة فوجد بعد فترة أن النشاط يتدهور، والعلاقات تسوء، والمشاكل تزداد ولم يستطع أن يقطعها ولا أن يصلحها، فالناس لا تصبر على هذه السلسلة من التصرفات الخاطئة، كما أنهم يحملونه التبعات والمسؤولية؛ لأنه لم يتصرف التصرف السليم، ولم يصدر القرارات التي تتناسب ظروفها مع الحكمة العملية والتحليات المنطقية المقبولة.

أما في الوضع العادي فمن يخطئ كثيراً وتصحح أخطاؤه، ويطلب أن يسامح ويغفر له فقد يصبر عليه الناس فترة من الوقت ولكنهم لا يرضون منه أن يستمرَ هذا الوضع، ومن صفات القائد:

الخامس والعشرون

الحكمة العملية والتصرفات السليمة: والقدرة على التحليل العقلي، والقدرة على تقدير الاحتمالات والحساب لها وكل هذا قد مرّ ذكر لأدلته من سيرة النبي ﷺ.

تفسيرات للقيادة: تعليقات على الكتب الإسلامية التي عنيت بهذه الأمور: نجد أن القائد الفعّال هو الذي يتحلى بالصفات الحسنة المقبولة، وأن يكون ذكياً شجاعاً كريماً عادلاً منصفاً حازماً ليناً عطوفاً ذا حنكة ودهاء ورؤية ثاقبة، قادراً على تحريك الناس. فالقائد الكامل نادر في بني البشر ما خلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلو أردنا أن نبحث على شخصية فذَّة مثل سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه من المستحيل أو الصعب جداً أن تتجمع تلك المواهب التي اختُصَّ به نبينا ﷺ وأن تُرى في فرد، لكن من المعلوم أن هناك صفات خاصَّة هي أهم من غيرها، وهل هي فطرية هبة من الله تعالى أم مكتسبة يستطيع الإنسان أن يتعلمها؟ أسئلة تدور في الأذهان تطرح نفسها، منها:

١ ـ إذا كانت القيادة فطرية فلماذا ندرسها ونتكلم عنها وندونها في المؤلفات؟ فمثلاً من كان صوته غير جميل، فمهما عمل فإنه لا يستطيع أن يغير صوته، ولكن يستطيع أن يقيمه من حيث اللغة والمخارج ونحوها لا غير، فهل القيادة من هذا النوع وهي هبة من الله يعطيها لبعض الناس دون الآخرين، أم هي علم يستطيع أن يتعلمه الإنسان كالإلقاء والتخطيط والفنون الأخرى، فإذا تأملنا ونظرنا في أجزاء أصل القيادة وجدناها تتألف من ثلاثة عناصر أساسية: وهي: العلم، والمهارة، والسلوك والمواهب فإذا فكّر القائد بأمر ما فإنه يعتمد على هذه العناصر، وكل منها هل هو قابل للاكتساب أم لا؟

أما العلم فإنه قابل للاكتساب، والقيادة إذا تفتقر إلى العلم فيطلب من هذا القسم.

وأما المهارة والخبرة فهي قابلة للاكتساب أيضاً.

وأما السلوك والمواهب فهي فطرية وقابلة للاكتساب فاختلفوا في ذلك؟ فيقول أحد الغربيين: لا يمكن أن تُتَعلم القيادة، فالقيادة شخصية وحكمة وهما أمران لا يمكن تعلمهما.

ويقول آخر: القيادة نستطيع أن نتعلمها، ويجب أن نتعلمها.

فلو رجعنا إلى الأصول الشرعية من تراثنا النبوي وجدنا قصصاً تبين لنا وقائع تدل على هذا الأمر حقيقةً، فمثلاً نرى في عام الوفود ـ السنة التاسعة من الهجرة ـ أنه قدم على النبي ﷺ وفد بني عبد القيس وهو مؤلَّف من أربعين رجلاً وفيهم الأشج، واسمه: المنذر بن عائذ الذي قال له ﷺ: «يا أشجّ، إن فيك خصلتين يحبهما اللّه ورسوله: الحلم والأناة»[1]، وروي: «الحلم والحياء»[2] قال: قلت: يا رسول اللّه شيء من قبل نفسي أو شيء جبلني اللّه عليه؟ قال: بل شيء جبلك اللّه عليه، قال: فقلت: الحمد للّه الذي جبلني على خلقين يرضاهما اللّه ورسوله[3].

أي: أنهما خصلتان فطره سبحانه وتعالى عليهما فله المنَّة، فقد يستدلُّ البعض من هذا الحديث بأنَّ القيادة أمر فطري. ويأتينا

---

١ - أخرجه عن الأشج العصري رضي الله عنه أحمد (٤/٢٠٥ ـ ٢٠٦)، وابن سعد (٥/٥٥٨ و٧/٨٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٤)، والنسائي في فضائل الصحابة (٢٠١)، وأبو داود (٥٢٢٥)، والطبراني (٥٣١٣)، وابن حبان (٧٢٠٣)، والبزار (٢٧٤٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/١٠٢).
وأخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً البخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٦)، ومسلم (١٧) (٢٥)، والترمذي (٢٠١١)، وابن حبان (٧٢٠٤).

٢ - أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن ماجه (٤١٨٨) في الزهد.

٣ - اللفظ الذي أوردته لابن عبد البر في «الاستيعاب» ت: (١٥٢).

نصٌّ عنه ﷺ: «إنما العلم بالتعلم والحِلْم بالتحلُّم»[1] لكنه لا ينهض أمام الخبر المتقدم وفيه نظر، ويوجد حديث آخر في هذا الباب، وهو:

أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مراراً، فقال: «لا تغضب»[2].

هذا الحديث على قصر ألفاظه وبساطته يدلُّ على خاصيَّة هامَّة، وهي أن النبي ﷺ من شدَّة معرفته بأصحابه أنه يعرف نقص ومثالب كل واحد منهم، فيصف لكلِّ واحد دواء على حسبه، فلكلٍّ وصيته، ولكلٍّ تخصيصه، ولكلٍّ منْزلته ونصحه.

ويستفاد منه أيضاً: أن الغضب وشدته أمر فطري ويستطيع الإنسان بالدربة والتدرج أن يطغى عليهما بحكمته وصبره، وإلا كان أمره ﷺ بمحال، وحاشى أن يكون النبي ﷺ يطلب ذلك.

فالقائد الناضجُ الفعّال هو الذي يميز بين قدرات الناس، ويبين لكلٍّ إيجابياته وسلبياته، فيعرف داءه فيعطيه من البلسم الشافي ما يحتاج، من غير إحراج.

١ - رواه عن أبي الدرداء رضي الله عنه الطبراني، والدارقطني في «العلل» (١٠٨٥) بسند ضعيف.
٢ - رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠).

وكذا يبين فيه : أن هذا الرجل مع الغضب يتمتع بخلق سَيِّء فيمنعه من الحلم، وبالتالي يحجزه عن القيادة.

فإذاً تقرير المسألة بأيدينا، فنحن نستطيع أن نتعلم علم القيادة وننظر في نظرياته وجزئياته وأساليبه؛ لأن القيادة قابلة للتعلم، بل ونستطيع أن نتعلم الصفات القيادية.

فإذا أردنا اليوم تخريج قادة؛ فإنه من الواجب علينا أن نهيأ لهم منهجاً في التربية والأخلاق والسلوك والتعامل يدرسونه ويمعنون النظر والفكر فيه، نستقيه ونستمده من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله المجتبى ﷺ، فهو المثال للقائد الفعّال.

هذه المدرسة التي يُنَشَّأُ فيها هؤلاء النخبة تبدأ من حيثُ الطفولةُ، فمثلاً نرى النبي ﷺ يقول عن الحسن رضي الله عنه سبطه ﷺ: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، وعسى اللّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]. فالعناية بالجيل المسلم تبدأ من نعومة الأظفار؛ لأن العلم في الصغر كالنقش على الحجر، والطفل غالباً سهل الانقياد كما أشار الشاعر لذلك:

إن الغصون إذا لاينتها اعتدلت ولا يلين إذا لاينته الحطب

فمتى اشتدَّ عود الإنسان على خُلُق فإنه يستمرُّ عليه، لذلك قالوا: الطبع يغلب التطبع، ومن التعذيب تهذيب الذيب، ومع ذلك فإن من اجتهد في شيء وبذل وسعه ورغب في تحصيله وتلهف بشغف للوصول إليه.. فإنه قد يناله كما قال ابن الوردي رحمه اللّه تعالى:

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل

وقال الآخر:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجَ

1- أخرجه بألفاظ متقاربة عن أبي بكرة رضي الله عنه أحمد(٥/٤٩)، والبخاري(٢٧٠٤)، وأبو داود(٤٦٦٢)، والطبراني (٢٥٩١)، وابن حبان(٦٩٦٤) وغيرهم.
ومثله قوله ﷺ في الثناء على ابنته فاطمة رضي الله عنها، لأنها تربت في بيت النبوة: «إنما فاطمة بضعة مني». رواه عن المسور رضي الله عنه أحمد(٤/٥)، والترمذي(٣٨٦٩) وصححه، والحاكم(٣/١٥٩).
وكقوله: «إنما فاطمة شجنة مني». رواه عن المسور أيضاً الحاكم(٣/١٥٤) وصححه ووافقه الذهبي.
وقوله: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟» رواه عن عائشة رضي الله عنها البخاري(٦٢٨٥) و(٦٢٨٦)، ومسلم(٢٤٥٠). الشجنة: الرحم المشتبكة.

فمن تدرج على منهج في الأخلاق والتربية والسلوك وكان هناك من يرغبه ومن يشجعه: إما بدوافع شخصية ذاتية، أو بدوافع خارجية كمعلم ومحبٍّ وصديق ووالد وحاجة فإنك ترى منه ما لا تتوقعه، قال الشاعر:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

فاكتساب هذه المعارف في الصغر أسهل منها في الكبر، وورد عن الشافعي رحمه الله أنه قال: تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست، فلا سبيل إلى التفقه.

السادس والعشرون

القائد الفعّال من صفاتِه أيضاً:

أنه يدرك التغيرات التي تحدث حوله من أمور سياسة واجتماعية واقتصادية[1] لنرى النبي ﷺ كيف عمل على تحالفات ومهادنات كثيرة مع عدة فئات، وكم كان له من مرونة في هذا المجال كما في صلح الحديبية مثلاً.

وكذا نجده كيف استجلب المنجنيق من الأردن ليقاوم به أهل الطائف الذين كانوا متحصنين، ولنطلع عليه يوم بدر

١ - أي: أنه لا يصح أن يكون القائد منعزلاً لا يعرف كيف يتعايش مع شعبه، أو أنه يمكث في برجه ويطَّلع عن بُعد من غير معرفة دقيقة للمجريات التي في وطنه، أو منظمته، أو إدارته، أو معمله.

الكبرى- أول معركة يقودها - كيف استعمل أساليب مغايرة لما تعرفه العرب - كانت طريقتهم المعهودة هي الكَرُّ والفَرُّ - فلما بدأ القتال أمر النبي ﷺ الصحابة أن يقفوا، ثم أمرهم بالجلوس على الركب ويشهروا السيوف والرماح، فقال أبو جهل ومن معه: إن هذا الأمر لا تعرفه العرب.

ولننظر مفاجئته العرب يوم الأحزاب بأمر لم تعهده من قبل- وكان ذاك من استفادته من الخبارت الأخرى كالروم والفرس - وذلك باستشارته لسلمان رضي الله عنه في حفر الخندق.

كان ﷺ بحقٍّ قائداً فعّالاً يأتي دوماً بأساليب جديدة، ويفكر ويبتكر ما لم يسبق لمثله.

تعلم الصحابة رضي الله عنهم هذه المعاني من النبي ﷺ فهذا عمر رضي الله عنه يجعل الدواوين والسجلات تضبط الأسماء وتميزها وينظم الأمور حتى التي لم يك مثلها في عهده ﷺ ولا زمن سابقة أبي بكر رضي الله عنه، لكن استطاع أن يستفيد مما وصلت إليه الأمم من حوله.

السابع والعشرون

فالقائد الفعّال: مَرن متكيِّفٌ متفاعلٌ متأثرٌ مبدعٌ ومغامرٌ يستفيد من العلوم التي توصلت إليها البشرية كما أنه يعملها من حيث وصلوا إليها؛ ليتقدم بها حتى على أصحابها، ويستغلها حتى يولِّد منها أشياء تنبثق عن جذورها بثمار مختلفة لم تعلم من قبل فينجح. ونجد من لا يغامر ولا يخاطر ويقبع الأرض يفوته خيرات كثيرة، قال الشاعر:

ومن يتهيَّب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر

الثامن والعشرون

والقائد الفعَّال هو الذي يسمع من متبوعه أو من عدوه ليعلم ما عنده - كما قال ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[1] فمثلاً كان النبي ﷺ يسمع حتى لطغاة قريش في بدء الرسالة - ولا يقاطع المتكلم حتى ينتهي من كلامه ويفهم مراده. وهذا

١ - أورده التقي الهندي في «كنْز العمال» (٢٨٧٥٧) و(٤٤٠٨٩) و(٤٤٠٩٠).

مما يركز عليه علماء الغرب، وقد ثبت في خبر علي رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان إذا كلمه أحد التفت إليه بكليته) كما في «شمائل الترمذي» فيعطيه كامل الانتباه وكأنه يعتني بقوله غاية الاعتناء.

فالقائد الفعال الذي يسمع، والذي يستمع بإصغاء يفهم، والذي يفهم يقرر ويدبر، ويأتي بالأمر الناجح المدروس السليم، وبهذا يزرع الثقة عند الآخرين بقرارته الحكيمة المحمودة العاقبة وبهذه الصفات يتابعونه وينقادون لقوله نحو الهدف؛ لأنهم يرون أن الصحيح الصحيح هو دربه وطريقه ومنهجه.

التاسع والعشرون

خاتمة البحث: فإذاً معاني القيادة جليلة وكثيرة ومهما تكلم أحدنا في هذا المجال يجد في السيرة النبوية وسير أصحابه وخلفائه ﷺ الشيء الكثير، وما ذكر في هذه العجالة يعدُّ كمقدمات في صنع نظريات القيادة الإسلامية الحديثة التي نستطيع أن نبرزها إلى الوجود ليستشف منها المسلمون والعرب ما يضاهون به الغرب، ونستطيع أن نسود من جديد ونعلو بما رفعنا الله به من دين وعز كما قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران: ١٣٩.

نفعني الله وإياكم بالذكر الحكيم، وهدانا جميعاً إلى صراطه المستقيم في متابعة سيرة نبيه الأمين، المطاع الكريم، واجعلنا يا ربّ من عبادك المفلحين، الفائزين الصالحين، وأثبنا بالتوفيق والقيادة في الدنيا، و: ﴿اجعلنا للمتقين إماماً﴾ الفرقان: ٧٤ في الدين، وأكرمنا في دار إكرامك في الفردوس الأعلى مع السادة والقادة النبيين، وعلى آل كلٍّ وسائر المتبعين لهم بإحسان، إلى يوم الدين.

موارد نص هذا الكتاب

1 ـ «القرآن الكريم».

2 ـ «صحيح البخاري» وشرحه «فتح الباري».

3 ـ «صحيح مسلم» وشرحاه «المفهم» و«المنهاج».

4 ـ «سنن أبي داود».

5 ـ «سنن الترمذي».

6 ـ «سنن النسائي».

7 ـ «سنن ابن ماجه».

8 ـ «مسند أحمد».

9 ـ «الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان».

10 ـ «كنْز العمال».

11 ـ «كشف الخفاء».

12 ـ «الاستيعاب في معرفة الصحاب».

13 ـ «الإصابة في تمييز الصحابة».

14 ـ «الجامع الصغير».

15 ـ «طبقات ابن سعد».

16 ـ «السيرة النبوية» لابن هشام.

17 ـ «فقه السيرة» للدكتور سعيد البوطي.

18 ـ «الشمائل» للترمذي.

19 ـ «المستدرك» للحاكم.

20 ـ «السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة» لأبي شهبة.

21 ـ «سيرة رسول ا لله ﷺ الرحيق المختوم» للمباركفوري.

22 ـ «السنن الكبرى» للبيهقي.

23 ـ «نور اليقين» للخضري.

24 ـ «حدائق الأنوار ومطالع الأسرار» لمحمد بن عمر بحرق.

25 ـ «الأذكار».

26 ـ «رياض الصالحين».

27 ـ «مكارم الأخلاق» للخرائطي.

28 ـ «السنة» لابن أبي عاصم.

29 ـ «دلائل النبوة» للبيهقي.

30 ـ «المعجم الكبير» للطبراني.

31 ـ «العلل» للدارقطني.

32 ـ «الأدب المفرد» للبخاري.

33 ـ «فضائل الصحابة» للنسائي.

34 ـ «مسند البزار».

35 ـ «النهاية في غريب الحديث».

36 ـ «مختار الصحاح».

37 ـ «القاموس المحيط».

38 ـ «البيان» للعمراني.

39 ـ «تحفة الحبيب» للفشني.

40 ـ لامية ابن الوردي.

41 ـ «تقريب التهذيب».

42 ـ «صور من حياة الرسول» لأمين دويدار.

43 ـ «الشفا في تعريف حقوق المصطفى».

44 ـ «سير أعلام النبلاء».

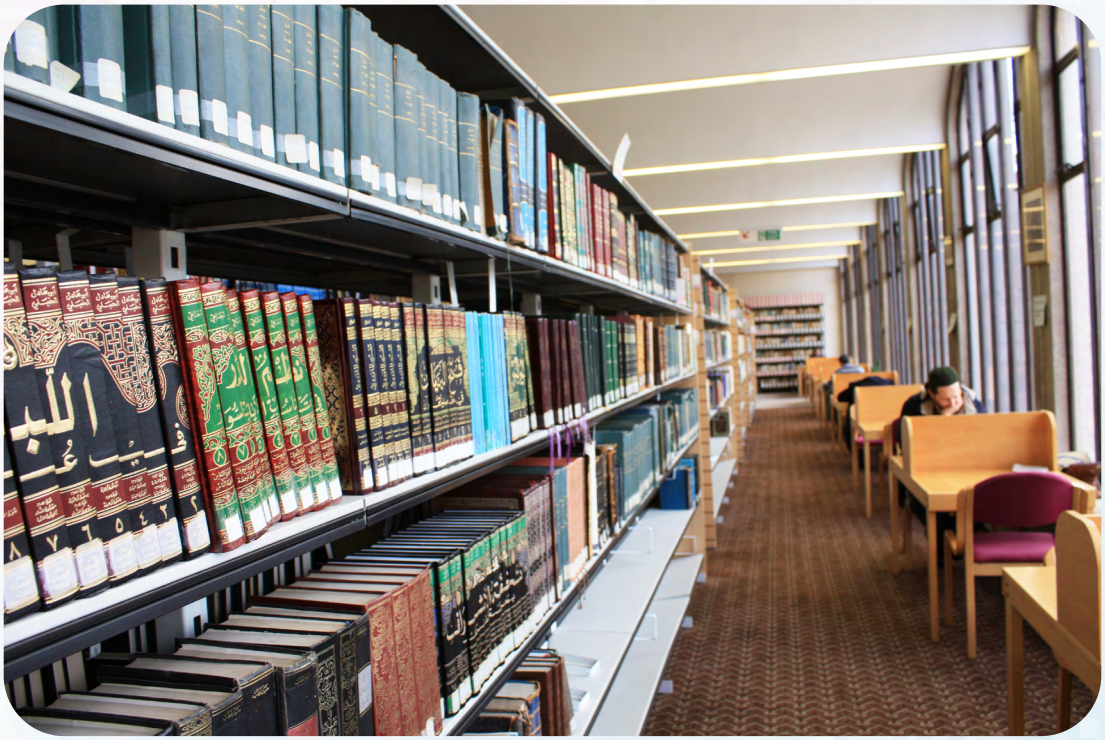

دليل لمحتويات هذا الكتاب

تقديم	4
مدخل بفن القيادة	9
مصادر أصول هذا الفن	11
أحداث فعالة	12
أ ـ من صفات القائد إقامة ميزان العدل	13
حكام الأرض وانتصار بعضهم	14
خلاصة القول	15
من مظاهر التخلف	16
العودة إلى الالتزام	16
نماذج توضح الفكرة	17
مثال مريم وموسى عليهما السلام	18
خلاصة القول	19
ملحوظات هامة	20
عودة إلى الإرادة والقيادة	20
مكانة الإدارة والقيادة	21
من عناصر قيادة ﷺ في الحروب	22
نماذج عن تخلف الإدارة	24
الوضع الحالي للمسلمين	25
تعريف القيادة ونظرها إلى المستقبل	26

1 - خبر سراقة 27
2 - خبر عدي 28
3 - غزوة الخندق 29
وقفة مع أهل النفاق 31
نظرات مهمة لمفهوم القيادة 31
ب - صفات القائد الإدارية 35
1. صفة الاستقامة 35
نماذج من ذلك أبو ذر 36
يؤخذ مما سلف 37
ولاة وقواد في عهد النبي ﷺ 37
خالد بن الوليد رضي الله عنه 37
عمرو بن العاص رضي الله عنه 39
العبرة من القصة 41
النعمان بن مقرن 41
2. صفة الحكمة 42
مثال لذلك 42
معالجة المشكلة 44
النتائج المهمة 45
3. الاستطلاع 46
4. الشجاعة مع الذكاء 47

شجاعته ﷺ 48
نماذج من ذلك 49
5 . الإرادة القوية 56
6 . الشورى وتبعاتها 57
7 . التصميم على دحر العدو 58
8 . اكتشاف مكيدة العدو 59
ضعضعة جيش أبي سفيان 60
9 . التوازن 61
نماذج عن الفرح بالنصر 62
ثبات النبي ﷺ 62
معاملة الملوك 65
مثال على ذلك 65
مجريات قصة عدي 66
العبر من قصة عدي 67
10 . من صفات القائد 68
مجريات صلح الحديبية 68
رسل قريش إلى النبي ﷺ 69
صد المسلمين بالطرق السلمية 69
رسل النبي ﷺ إلى قريش 71
بيعة الرضوان 72

التوتر يداخل قريش 73
شروط الصلح 74
تأثر المسلمين 75
12 ـ القائد الفعال وقبوله للنقد 77
13 ـ صبر القائد 78
إعطاء فرصة للمرؤوسين 79
14 ـ التزام القائد بالعهد 79
نماذج من ذلك 79
قصة أبي جندل رضي الله عنه 79
قصة أبي بصير رضي الله عنه 80
15 ـ القائد الفعال يحسب أموره 82
نموذج يدل على ذلك 82
كيفية عقوده ﷺ مع الخصوم 82
16 ـ وثوق القائد بمستشاريه 84
بيان ميزان الأتباع 85
معرفة قدرات ومواهب الجند 86
17 ـ من صفات القائد الموهوبة 87
وفد هوازن 88
رد السبي لهوازن 89
قصة الشيماء 90

قسمة الغنائم 90
سياسته نحو المؤلفة 91
18 ـ القائد الفعال يعرف ما تصبوا إليه جنوده 93
فضل الأنصار ومكانتهم عند رسول الله ﷺ 94
من فوائد استعطاف القائد 96
19 ـ من صفات القائد الفعال تحريك العاطفة 97
اعتراضات المنافقين 99
مثال آخر في قوله معتب 100
خلاصة القول 100
معاملة النبي ﷺ لأعدائه 100
عقاب الخونة 103
20 ـ القائد الحكيم لاستسلم 104
يزرع المحبة في قلوب أصحابه وأمثلة على ذلك 104
1 ـ قصة خبيب ﷺ 104
2 ـ مشهد أبي سفيان ليلة الفتح 105
3 ـ نموذج ثالث 106
4 ـ شكل رابع 107
خلاصة القول 107
21 ـ من صفات القائد العدل وضبط النفس 108
مما ذكر نخلص لما يلي 109
22 ـ من صفات القائد الثقة 110

كيف تنشأ صفات وأدوار القائد 113
23 . حسن توجيه الناس 114
24 . القدرة العقلية 114
25 . الحكمة العملية والتصرفات السليمة 115
تفسيرات للقيادة 115
فوائد من حديث لا تغضب 118
26 . من صفات القائد الفعال إدراك الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية 121
27 . من صفات القائد المرونة 123
28 . من صفات القائد السماع لمتبوعه 123
29 . خاتمة البحث 124
موارد نص الكتاب 126
فهرس المحتويات 129

تقبل الله منا ومنكم
صالح الأعمال